



جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي

معهد العلوم الإسلامية

قسم الشريعة



فقه المقاصد عند الإمام ابن باديس

مذكرة تخرّج تدخل ضمن متطلبات الحصول على شهادة الماستر

في العلوم الإسلامية - تخصص: الفقه وأصوله

المُشرف:

الطّالب:

د.نبيل موفّق

بشير جنّان

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
د. أمير شريط	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	رئيساً
د/ نبيل موفّق	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	مُشرفاً ومقرّراً
أ. ميلود ليفة	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	مُمتحناً

السنة الجامعية: 1437 - 1438هـ / 2016 - 2017م



الإهداء

إلى أمي ثم أمي ثم أمي . رحمها الله . ، ثم إلى أبي . عافاه الله وأمده بالصحة . .
إلى روح الإمام الرئيس المصلح العظيم عبد الحميد بن باديس . رحمه الله . .
إلى روح شيعي الإمام المجدد محمد الغزالي . رحمه الله . .
إلى شريكة حياتي التي أعانتي بالصبر والتضحية وتوفير الظروف، وتحفيزي على
مواصلة مشوار العلم والتعلم.

إلى ولديّ وفلذتي كبدي: إشراق و محمد شكيب .
إلى إخوتي وزوجاتهم، وأخواتي وأزواجهن، وأولادهم .
إلى أخي العزيز علي قلبي: مسعود كربوع، رفيق دربي، الذي كان يشجعني
على إكمال مشوار الدراسة، رغم الصعوبات والمعاناة .
إلى أخي الكريم: الجموعي هاني، الذي لم يبخل علي بنصائحه ومجهوداته .
إلى كل أساتذتي الذين شرفوني بتدريسهم لي في المعهد الكريم .
إلى كل زملائي في هذه الدفعة، وأخصُّ بالذكر تلك الثلة الطيبة المباركة .
إلى كل أصدقائي في مهنة التعليم، وزملائي في العمل، كل باسمه وصفته .
إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع، آملا من الله تعالى القبول، وأن
يجعله في ميزان حسناتي .

الباحث: بشير جنان

شكر وتقدير

أولاً أتوجّه بالشكر العظيم لمن هو أولى به وأهله، إلى ربّي وخالقي ومُوفّقي
ومُعيني على إتمام هذا العمل الذي هو جُهد المقلِّ.

ثم أوجّه شكري وعرفاني إلى كلِّ من:

– الدكتور الفاضل: نبيل موفق، على تكمُّمه بقبول الإشراف على هذه المذكرة،

وعلى تفضُّله عليّ بفيض نصائحه وتوجيهاته القيّمة، فله من الله تعالى أفضل
الجزاء، ونفع بعلمه وأخلاقه الأُمَّة.

– إلى كلِّ مَنْ مدَّ إليّ يدَ العون والمساعدة، ولو بالنُّصح، والتوجيه، والتشجيع

وأخصُّ بالذكر أخي وصديقي الأستاذ: الهاشمي قروف.

– إلى كلِّ مَنْ يقاسمني الحب والاحترام، وطلب العلم والمعرفة.

لكم منّي فائق التّقدير، وعظيم عبارات الشُّكر، سائلاً لكم المولى . عزَّ وجلَّ .

البركة في أعماركم، والقبول لأعمالكم، والتوفيق والسداد، وحسن الخواتيم.

الباحث: بشير جنان

ملخص البحث

يتناول هذا البحث: فقه المقاصد عند الإمام ابن باديس، وهو جانب مهم من حياته، وكان هذا من خلال مقدمة، ومبحث تمهيدي، ومبحثين وخاتمة، ففي المبحث التمهيدي عرّفت بابن باديس، وبمقاصد الشريعة وبأثر بعض شيوخه في تكوينه المقاصدي، أما المبحث الأول فقد بيّنت فيه اهتمام ابن باديس بفقه المقاصد، في كل من مجال الدعوة والتعليم والفتوى، وأما في المبحث الثاني فقد تناولت المنهج المقاصدي عند الإمام ابن باديس، من خلال اعتباره للمصلحة والمفسدة، وفقهي: المآلات والأولويات، وكذلك نظره الكلي في معالجة المشكلات، ثم ختمت ببعض النتائج، لعل أهمها: كون اهتمام ابن باديس بفقه المقاصد، كان اهتمام تنزيل في الواقع. وكذلك ببعض التوصيات لعل أبرزها إدراج المبادئ العامة لفقه المقاصد ضمن محتويات مناهج التربية، وبالخصوص في طوري: المتوسط والثانوي.

RESEARCH SUMMARY

This research deals with fiqh of purposes (Maqased) of Imam Ibn Badisse and it is an assential aspect in his life. My research consists of an introduction , an introductory section , two phases and a conclusion .The introductory section deals with the biography of Ibn Badisse , the purposes of shari'a and the influence of his shouyoukh (tutors) in his purposeful formation. In the first phase , I illustrated Ibn Badisse interest in fiqh (jurisprudence) of maqased (purposes) in the following domains : Da'wa , education and fatwah .In the second phase , I tackled the maqased methodism of Imam Ibn Badisse considering goodness and malevolence (badness) and both of fiqh of fates and priorities. Besides , his entire view in solving and dealing with problems. Finally , I concluded my research by some results and the most important ones are :

Ibn Badisse interest in fiqh of maqased justified interest of implementing it in reality and also some recommendations which focus on including public principles of fiqh of maqased in the educational curriculum particularly in middle and secondary levels (schlools).

قائمة الرموز والإشارات

مج	مجلد
ج	جزء
ص	صفحة
ط	طبعة
هـ	هجري
م	ميلادي
لا.ط	لا طبعة
لا.ن	لا ناشر
د.ت	دون ذكر تاريخ
لا.م	لا مكان طبع

مقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على خير من تلقى على الأرض رسالة السماء، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. وبعد:

إنَّ البحث في فقه المقاصد من جهة، والإمام عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - من جهة أخرى، هو بحثٌ يتطلَّب استجماعًا لمدارك العقلِ وعوالمِ الرُّوحِ، ذلك أنَّ فقهَ المقاصدِ - بقدر أهميته - يحثُّ الباحثَ فيه أن يكونَ ذا عقلٍ راسخٍ، وذا لبِّ حصيفٍ، غيرَ وقَّافٍ عند الظواهرِ والمباني، بل غوّاصٍ في الأعماقِ والمعاني، وغيرَ قاصرٍ الفهمِ والإدراكِ على أجزاءٍ متناثرةٍ ومفكَّكةٍ من الشريعة، مُهملاً لغاياتها وأسرارها، بل أن يكونَ عقلاً جامعاً للتصوُّرِ الكاملِ لهذه الشريعة، وفقهياً لأحكامها فهماً وتنزيلاً، كيفَ لا والمقاصدُ هي الأساسُ الذي يقومُ عليه التشريعُ!!

أمَّا الكلامُ عن الإمامِ ابنِ باديس، رائدِ التربيةِ في الجزائرِ وإمامِ المصلحين فيها، بل علِّمٍ من أعلامِ الإصلاحِ في العالمِ الإسلاميِّ، فهو كلامٌ ذو شجونٍ، يحتاجُ إلى حضورِ روحِ الباحثِ إلى جانبِ عقله، حتَّى يتحسَّنَ برفقٍ مسيرةَ ابنِ باديس العطرة، ليكتشفَ مواطنَ التوفيقِ والسدادِ، ويتلمَّسَ ببصيرةٍ مواضعَ ومواطنَ أسرارِ النجاحِ فيها.

وأما أن تجمعَ بينَ عالمين: عالمِ فقهِ المقاصدِ، وعالمِ ابنِ باديس، فهو عملٌ بقدرِ ما فيه من المغامرةِ والتَّعبِ والتَّصبُّبِ، بقدرِ ما فيه من المنعةِ والتَّأمُّلِ والاستكشافِ والاسترشادِ بنورين، نورِ فقهِ المقاصدِ التَّنظيريِّ (الفهم)، ونورِ ابنِ باديس في إدراكه لهذا الفقهِ وتطبيقه (التنزيل).

ولقد تتبَّعَ الباحثونَ والدارسونَ حياةَ الإمامِ ابنِ باديس المتعدِّدةِ الجوانبِ فنهلوا من هذا النَّبعِ العظيمِ، كلُّ بحسبِ اختصاصه، فهو الإمامُ العالمُ الفقيهُ، الدَّاعيةُ المصلِحُ، المعلِّمُ المرَبِّيُّ والمرشُدُّ، الصَّحفيُّ المتمرِّسُ، والسِّياسيُّ المحنَّكُ...، فوصفوا لنا. ما أمكنهم ذلك. ملامحَ ذكائه وتبوغه، وآياتِ عبقريته، ورغمَ كلِّ جهودِهِم الكثيرةِ، لن يُوفِّوا الرَّجلَ قدرَه أوعطوه حَقَّهُ مَهْمَا أسألوا من حبرٍ، وتفنَّنوا في الوصفِ، وأبدعوا في البَحْثِ؛ إذ سيئَمَى عَصِيًّا على مَنْ تناولَ حياته بالدراسةِ، لأنَّه رجلٌ عظيمٌ، بكلِّ ما يحملُ هذا التَّوصيفُ من دلالاتٍ، قد يصعبُ التَّعبيرُ عنها، أو يعجزُ اللِّسانُ عنَ ذِكْرِهَا.

وإني أريد أن أسهم في هذا الفيض ببعض العيـض . وهو جهدُ المقلِّ . ، وفي هذا السبيل الدافق ببعض هذه القطرات، مُركِّزاً على جانبٍ زُبماً قلَّ فيه الخوضُ، بالمقارنة بكثرة الدراسات التي كُتبت حول هذه الشخصية العظيمة، أقصدُ جانبَ فقه المقاصدِ عند الإمام ابن باديس . قاصداً في ذلك محاولةً إمطة اللثام . قدرَ المستطاع والظرف . عن جانبٍ من حياة هذا الإمام العظيم، غفلَ عنه الكثير من الدارسين لشخصيته، والباحثين في أغوارها .

أولاً . أهمية الموضوع:

لهذا الموضوع أهمية بالغة وخطيرة، يمكن إيجازها في الآتي:

1/ اكتسى هذا الموضوع أهمية كبيرة، نظراً لقيمة وأهمية فقه مقاصد الشريعة نفسه، ولدوره الخطير في الفكر الإسلامي .

2/ واقعية هذا الموضوع، إذ بالإمكان أن نلمس كل تفاصيله في واقع حياتنا عند تنزيله، وذلك هو المطلوب والمرغوب .

ثانياً . إشكالية البحث:

إنَّ الباحث في حياة هذا الإمام العظيم، وآثاره، وفتاويه، ودعوته، ليجدُ الدرسَ المقاصديَّ حاضرًا في ذلك الإرث العلميِّ والدعويِّ الوافرِ والكبيرِ . فقهاً وتنزيلًا . ، فما هي يا ترى رؤية الإمام لفقه المقاصد؟ ويتفرع عن هذا الإشكال الرئيس إشكالات فرعية أخرى، أهمها:

1/ ما مدى تحيين الدرس المقاصدي في حياته الإصلاحية والدعوية؟

2/ في ماذا يتمثّل منهجُ الاجتهاديِّ المقاصديِّ؟

ثالثاً . أسباب اختيار الموضوع:

بالإمكان حصر هذه الأسباب فيما يلي:

1/ احترامي واهتمامي ومدى محبتي . منذ صغري . لهذه الشخصية العظيمة، ولدورها الكبير في تصحيح وإصلاح مسار تاريخ الأمة الجزائرية، فكرياً، ثقافياً، وأخلاقياً...

2/ كشف اللثام عن هذا الجانب المهم من الفقه في حياة ابن باديس .

3/ إهمال الكثير من الدعاة اليوم . وللأسف . لفقه المقاصد، وذلك بعدم تنزيله في الواقع، وهذا في الجانب الدعوي والتربوي، رغم أنه كان من أهم أسباب نجاح الإمام في منهجه الإصلاحية .

رابعاً . أهدافُ البَحْثِ :

أَمَلِي وَمُنِيَّتِي مِنْ خِلَالِ إِنْجَازِ هَذَا الْبَحْثِ أَنْ أَصِلَ إِلَى تَحْقِيقِ الْأَهْدَافِ التَّالِيَةِ :

1/ المساهمةُ في إبرازِ شخصيَّةِ الإمامِ ابنِ باديس في جانِبِها المقاصديِّ.

2/ بيانُ دورِ وأهميَّةِ تطبيقِ وتنزيلِ الفقهِ المقاصديِّ في واقعِ الحياةِ.

3/ كشفُ أبعادِ الاجتهادِ المقاصديِّ عندَ ابنِ باديس.

4/ العملُ على أداءِ خدمةٍ لثِراثِ جمعيَّةِ العُلَماءِ المسلمينَ الجزائريِّينَ، من خلالِ رئيْسِها الأوَّلِ

الإمامِ عبدِ الحميدِ بنِ باديس.

5/ إبرازُ دورِ أعلامِ وفُقهاءِ وعُظَماءِ الجزائرِ، لما نلحظُهُ من نسيانٍ . أحياناً . لفضائلِهِم، وتنكُّرٍ

. أحياناً أُخرى . لجميلِهِم على الأجيالِ، وللوقوفِ ضدَّ مُحاولَةِ إحدِاثِ الهوَّةِ بينهم وبين الجيلِ

الحاضرِ، والذي يُرادُ له أن يتنكَّرَ لماضيهِ، وينسلخَ من قيمهِ، وينقطعَ عن جذورِهِ، وأخيراً لكي

لا يستطيعَ أن يرسمَ حاضرَهُ، ولا أن يستشرفَ مستقبلَهُ.

خامساً . الدراساتُ السابقة :

في الحقيقةِ إنَّ هذا الموضوعَ كان يشغلُ فِكْري منذَ عدَّةِ سِنينَ، وعندما قرَّرتُ الخوضَ فيه،

فُوجِئتُ أنَّ هناكَ مَنْ سَبَقَني إلى تناوُلِهِ، ولو من زوايا مُختلفةٍ، أو جوانبٍ مُقارِبَةٍ أو مُلامِسةٍ لما

نويْتُ بَحْثَهُ، فوَقَعْتُ على دراساتٍ أكاديميَّةٍ سابقَةٍ، لها صلةٌ بموضوعِ البَحْثِ، وتتمثَّلُ فيما يلي :

1/ الفِكرُ المقاصديُّ عندَ ابنِ باديس من خلالِ آثارِهِ.مذكَّرةٌ ماجستيرٍ بكلِّيَّةِ العلومِ الاجتماعيَّةِ

والعلومِ الإسلاميَّةِ.جامعة أدرار، إعداد: عبد الخالق قصابوي.تحت إشراف: أ/نور الدِّين طوابة.

(2008م/2009م). تحتوي: 211 صفحة. ولم يتسن لي الحصول ولا الإطلاع عليها، وإنما

وجدتها مذكورة في كتاب: الإمام عبد الحميد بن باديس في الفكر الجزائري والعربي - كشف

بيبلوغرافي-، لمؤلِّفه: مسعود فلوسي، ص34.

2/ البُعْدُ المقاصديُّ في فتاوى أعلامِ جمعيَّةِ العُلَماءِ المسلمينَ الجزائريِّينَ.دراسةٌ من خلالِ جريدةِ

البصائر (1935م - 1956م)، مذكرةٌ مقدمةٌ لنيلِ شهادةِ الماجستير في العلومِ الإسلاميَّةِ،

تخصُّص: فقهٌ وأصولُهُ، إعداد: بوبكر صديقي. إشراف: أ.د/ مسعود فلوسي - جامعة: الحاج

لخضر- باتنة. كلية العلوم الاجتماعيَّةِ والإنسانيَّةِ والعلومِ الإسلاميَّةِ. قسم العلوم الإسلاميَّةِ.

(2010م . 2011م / 1431هـ . 1432هـ). تحتوي على: 264 صفحة.

وقد ذكر مُعَدُّها في المطلب الرابع من المبحث الثاني من الفصل الأول أصول الفتوى عند الجمعية، ثم خصَّ الفصل الثاني للمقاصد الشرعية في فتاوى الجمعية. ويتقاطع هذا الموضوع مع ما تناولتهُ بالدراسة في نقاط أهمها: مراعاة المقاصد في الفتوى، بمراعاة مقاصد المكلفين، بشرط موافقتهم لمقاصد الشارع، واعتبار المصلحة والمفسدة والمآلات، ومراعاة الحال والظروف - زمانا ومكانا- عند ابن باديس الذي هو أحد أعلام هذه الجمعية بل رئيسها.

3/ مقاصد الشريعة الإسلامية عند ابن باديس. السعيد رحماني (مقال) في مجلة رسالة المسجد، تصدرها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. السنة الرابعة، العدد: 2، ذو القعدة 1427هـ / نوفمبر 2006م.

4/ الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهوده. مسعود فلوسي.

5/ البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس. مسعود فلوسي (مقال) مجلة العلوم الإسلامية: الموافقات، يصدرها المعهد الوطني العالي لأصول الدين، السنة السادسة، العدد: 6. (1418هـ / 1997م . 1998م).

سادسا . منهجُ البحثِ:

بحسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع، أتبعُ:

- 1/ المنهج الاستقرائي: وذلك بتتبع النصوص المتعلقة بالبحث، سواء منها ما تعلق بآثار وأقوال الإمام ابن باديس نفسه، أو ما ذكره الدارسون لحياته والباحثون في سيرته. هذا من جهة.
- 2/ المنهج التحليلي الاستنباطي: ومن جهة أخرى، فقد استعنت بالمنهج التحليلي الاستنباطي، مُحاوِلاً في كل ذلك أن أستخرج كل ما له علاقة بالموضوع، تبعاً لنوع الدراسة وبجأها.
- 3/ المنهج الوصفي التاريخي: إلى جانب ذلك اعتمدتُ على المنهج الوصفي التاريخي.

سابعا . منهجية البحث:

يمكن تلخيص هذه الطريقة والمنهجية في النقاط التالية:

- 1/ تتبُّع أهم ما جُمع للإمام ابن باديس من آثار، وبعض ما نشر هو شخصياً من مقالات،

وعلى وجه الخصوص في جريدتي: "الشهاب" و"البصائر".

2/ تتبّع بعض البحوث والدراسات التي كتبت حول الإمام ابن باديس.

3/ اعتمدتُ في كتابة الآيات القرآنية على مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الإصدار: (1 و2)، برواية: (حفص عن عاصم)، مع عزو الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم، بذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن. وتسخين خطها تمييزاً لها.

4/ بالنسبة للأحاديث الشريفة ذكرت تحريج الحديث، وذلك بعرض مخرجه، ثم عنوان الكتاب والباب والجزء ورقم الحديث، ومعلومات عن النشر من: طبعة وبلد ومكان النشر والصفحة، مع تسخين خطه تمييزاً لكلامه. صلى الله عليه وسلم.

5/ اكتفيت بترجمة بعض الأعلام، وذلك لبقى الجهد منصباً حول الموضوع المقصود بالبحث، ولكي لا أثقل الهوامش بالتراجم.

6/ كتابة كل بيانات المرجع أو المصدر في الهامش، بذكر: اسم مؤلفه وعنوان الكتاب ورقم جزئه. إن وجد. ومعلومات النشر: رقم الطبعة، المكان، اسم الناشر وتاريخ النشر، ورقم الصفحة.

7/ إذا لم تتوفر في المرجع أو المصدر بعض البيانات، وضعت لذلك رموزاً - مفصّلة في جدول قائمة الرّموز والإشارات - للاختصار وتفاذي التكرار.

8/ إذا وجدت بالمصدر أو المرجع التاريخي الهجري والميلادي، فإنني أثبتتهما معاً؛ وذلك بذكر التاريخ الهجري ثم الميلادي، وإلا اكتفيت بإثبات الموجود منهما.

9/ وضعتُ فهارس لكل من: الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، والأعلام المترجم لهم، والمصادر والمراجع، وأخيراً للموضوعات.

ثامناً. حدود البحث:

1/ أتناول في هذا البحث: نبذة مختصرة عن أهم محطات حياة ابن باديس، وكذلك تعريفاً عاماً لفقهِ مقاصد الشريعة ولأهميته وتطوره.

2/ أتعرض لأهم اجتهادات ابن باديس المقاصدية من خلال بعض الاعتبارات، كفقهِ المآلات وفقهِ الأولويات، واعتبار الحال والظروف - زماناً ومكاناً - عند الفتوى.

3/ أتطرق إلى نظره الكلي والشامل لحل مشكلات مجتمعه، تبعاً لما تقتضيه شمولية المقاصد.



تاسعا . خُطَّةُ البَحْثِ :

بعد اختياري لموضوع الدراسة، سرت في كتابته وفق خطة رسمتها - فيما أعتقد - على أسس علمية ومنطقية، وهي في شكل مقدمة وثلاثة مباحث، أوَّلها كان تمهيديا، وأخيرا خاتمة ثم تليها فهارس فنيَّة. وفيما يلي عرض موجز لها:

المقدمة: وجاء فيها بيان لأهمية الموضوع، وطرح لإشكاليته، وأسباب اختياره، ثم الأهداف التي يرجى الوصول إليها، وبيان للدراسات السابقة له، والمنهج المتبع في معالجة مضامينه، وكذا المنهجية والطريقة التي سُلكت في تحريره، وتدقيق لحدوده، وعرض موجز لخبطته، وبيان مختصر لمصادره ومراجعته، وأخيرا للصُّعوبات والعراقيل التي اعترضته.

- **المبحث التمهيدي:** خصَّصته للتعريف بالإمام ابن باديس: مولدا، نشأة، تكويننا، ثم إشارة لأهمِّ شيوخه وتلامذته، ووفاءً. ثم عرَّجت إلى مفهوم المقاصد وتطوُّرها وأهمِّيَّتها، وختمت بذكر أثر بعض شيوخ الإمام في تكوينه المقاصدي.

- **المبحث الأول:** ضمَّنته اهتمام ابن باديس بفقهِ المقاصد من خلال ثلاثة مطالب، أوَّلها ضمَّ اهتمام الإمام بهذا الفقه في مجال التدريس والتعليم، وثانيها احتوى اهتمامه به في مجال الدعوة، وأما ثالثها فقد خصَّصته لاهتمامه بهذا الفقه في مجال الفتوى، ومراعاته للحال، وظروف الواقع . زمانا ومكانا . .

- **المبحث الثاني والأخير:** محتواه يتمثل في المنهج المقاصدي عند ابن باديس، فهما وتنزيلاً، من خلال ثلاثة مطالب، أوَّلها كان لاعتبار الإمام ابن باديس للمصلحة والمفسدة في اجتهاده المقاصدي، وثانيها كان لاعتباره لفقهِ المآلات وفقهِ الأولويات، وأما ثالثها فقد بيَّنت فيه نظرَ الإمام الكلبيِّ والشَّامل في معالجته لمشكلات مجتمعه وأمَّته.

- **الخاتمة:** حصرت فيها بعض النتائج المتوصل إليها، ثم ضمَّنتها بعض التَّوصيات التي تُخدم الدراسة في المستقبل بشكل أكبر.

- **الفهارس:** ذيلت الدراسة بفهارس فنيَّة بالترتيب الآتي: الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأعلام المترجم لهم، والمصادر والمراجع، وأخيراً فهرس للموضوعات.

عاشرا . مصادر ومراجع البحث :

عدتُ أثناء تناولي لهذا البحث بالدراسة إلى مصادر ومراجع، تميَّز أكثرها بأنه كان ورقياً، وأقلُّها الإلكترونيًا، كما أنَّ أغلبها كان عبارةً عن بحوث ودراسات أعدَّها أصحابها الباحثون حول شخصية الإمام من زوايا وجوانب مختلفة ومتعددة ومتباينة. وبعضها كان عبارةً عن جمعٍ لآثاره، كما أنَّ بعض هذه المصادر والمراجع يتناول فقه المقاصد، وما يتعلق به من اجتهادات تعود إليه بالضرورة، كاعتبار المآلات والأولويات، ومراعاة المصلحة والمفسدة، وسدِّ الذرائع، ومراعاة الحال والظرف والواقع، والتدرُّج والحكمة، وغير ذلك.

حادي عشر . صعوبات البحث :

كما هو معهود لا يوجد بحث إلا واعتزضت صاحبه بعضُ الصُّعوبات والعراقيل في طريقه، وإن كان ذلك ينسبُ متفاوتةً، تبعًا لطبيعة الموضوع والدراسة، ورغم وفرة المراجع والمصادر في فقه المقاصد . من جهة . ووفرة البحوث والدراسات التي تناولت شخصية ابن باديس . من جهة أخرى .، إلا أنني وجدتُ صعوباتٍ، منها:

1/ قلَّة المراجع التي تناولت الجانب المقاصديَّ عند الإمام ابن باديس، ممَّا يستدعي جهدًا أكبر، وذلك من خلال استقراء آثاره، واستنباط ما فيها من جوانب مقاصديَّة.

2/ بذلُ وُسعٍ كبيرٍ للوصول لاجتهادات الإمام المقاصديَّة في مواقفهِ المختلفة، من خلال دعوته أو تعليمه أو فتواه أو غير ذلك.

3/ بذلُ جهدٍ كبيرٍ للوصول إلى ربطِ علم الإمام بالمقاصد بين جانبي الفهم والتَّزليل، وخاصةً إذا علمنا أنَّ الإمام ابن باديس لم يُؤلِّف في مقاصد الشريعة.

وختامًا: فإنَّ أملِي أن يكون جهدي هذا إضافةً . ولو كان جهدًا المقلِّ . إلى رصيد البحوث العلمية، في حقل الدراسات والفكر الإسلامي، راجيًا من الله القبول، وأن يُثقل به يوم الحساب ميزان حسناتي، إنه نعم المولى، ونعم النصير . والحمد لله أولاً وآخراً.

وصلَّى الله وسلَّم على خيرٍ من تلقَّى على الأرض رسالة السَّماء، وعلى آله وصحبه.

المبحث التمهيدي

الإمام ابن باديس و مقاصد الشريعة

وقد ضَمَّنَتْهُ ثلاثة مطالبٍ، وهي كالآتي:

المطلب الأول: التعريف بالإمام ابن باديس.

المطلب الثاني: مقاصد الشريعة (المفهوم، التطور، والأهمية).

المطلب الثالث: أثر بعض شيوخ ابن باديس في تكوينه المقاصدي.

المطلب الأول

التعريف بالإمام ابن باديس

هو رائد الإصلاح في الجزائر الإمام: عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكي بن باديس
أولا . مولده:

وُلد عبد الحميد بن باديس في ليلة الجمعة الرَّابِع من شهر ديسمبر سنة 1889م في مدينة
قسنطينة¹، الأسبوع الثاني من ربيع الآخر سنة 1308هـ . وكان الولد البكر لوالديه .

ثانيا . والداه:

والدُّهُ هو السيّد: محمد المصطفى بن مكي بن باديس (ت: 1951م)، من حملة القرآن
الكريم، ومن أعيان مدينة قسنطينة، وقد كان عضواً بالمجلس الجزائري الأعلى والمجلس العمالي
لعمالة قسنطينة، وقد عُرف دائماً بدفاعه عن مطالب السُّكَّان المسلمين بالعمالة القسنطينية² ،
وأُمُّهُ من أسرة مشهورة في قسنطينة كذلك، هي أسرة (عبد الجليل) تُدعى (زهيرة) بن
جلول (لقب) بنت علي بن جلول³ .

ثالثا . أسرته:

هي أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء والجاه، وكانت منذ القدم ذات نفوذ، ومسيرة
للسِّياسة والحكم في المغرب الإسلامي .

¹ تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر (ط 5)، الجزائر: المؤسسة
الوطنية للاتصال النشر والاشهار. 1422هـ/2001م) ص 153 .

² عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، مج 1، ج 1 (لا.ط، الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م)
ص 74 .

³ المرجع نفسه، مج 1، ج 1، ص 73 .

كَمَا أَنَّ مِنْ أَسْلَافِهِ الْمَتَأَخَّرِينَ: قَاضِي قَسَنْطِينَةَ الشَّهِيرَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْحَمِيدَةَ بْنَ بَادِيسٍ وَمَكِّي
بْنَ بَادِيسِ الْقَاضِي بِهَا أَيْضًا... وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُسْرَةُ تَنْتَمِي إِلَى الطَّرِيقَةِ الْقَادِرِيَّةِ.¹

وَهُوَ سَلِيلُ عَائِلَةِ ابْنِ بَادِيسِ الصَّنَهَاجِيَّةِ، يَنْتَسِبُونَ إِلَى جَدِّهِمُ الْأَعْلَى: الْمُعَزَّ بْنَ بَادِيسِ ابْنِ
الْمَنْصُورِ بْنَ بَلْقَيْنِ بْنَ زَيْرِي بْنَ مَنَادِ بْنَ مَنُفُوشٍ...²

وَيَذْكَرُ الْكُولُونِيلُ (بَلِيدِير) - أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِدَارَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ - عَنْ هَذِهِ الْعَائِلَةِ الْبَادِيسِيَّةِ أَنَّهَا
كَانَتْ تَمُدُّ الْإِدَارَةَ بِأَعْظَمِ الرِّجَالِ كِفَاءً أَثْنَاءَ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ، فَلَمَّا جَاءَ الْعَهْدُ الْفَرَنْسِيُّ كَانَ
شَأْنُهَا كَذَلِكَ فِي بُيُوغِ أَفْرَادٍ مِنْهَا فِي الْإِدَارَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: وَلَكِنَّ الْعَجِيبَ الْغَرِيبَ أَنَّ الضَّرْبَةَ الْقَاضِيَّةَ
عَلَى سِيَاسَةِ فَرَنْسَا فِي الْجَزَائِرِ - يَعْنِي سِيَاسَةَ الْإِنْدِمَاجِ - جَاءَتْ عَلَى يَدِ أَحَدِ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْعَائِلَةِ،
وَهُوَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنَ بَادِيسِ رَئِيسُ جَمْعِيَّةِ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْجَزَائِرِيِّينَ. جَاءَ هَذَا فِي تَقْرِيرٍ سَرِيِّ
تَرَكَهُ بِالْوَلَايَةِ الْعَامَّةِ.³

رَابِعًا . زَوَاجُهُ:

حِينَ بَلَغَ الْخَامِسَةَ عَشَرَ مِنْ عُمرِهِ (1904م)، زَوَّجَهُ وَالِدُهُ وَأَنْجَبَ وَلَدًا أَسْمَاهُ (عَبْدُهُ إِسْمَاعِيلُ)،
ثَوْنِيٌّ وَعُمرُهُ سَبْعَةٌ عَشَرَ عَامًا، وَ يَبْدُو هَذَا تَيْمُنًا بِاسْمِ الشَّيْخِ الْمُصْلِحِ: مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ الَّذِي زَارَ
الْجَزَائِرَ الْعَاصِمَةَ وَمَدِينَةَ قَسَنْطِينَةَ سَنَةَ (1903م)، وَقَدْ يَكُونُ ابْنُ بَادِيسِ - صَاحِبُ الْأَرْبَعَةِ
عَشَرَ عَامًا آنَذَاكَ - قَدْ اتَّصَلَ بِهِ أَوْ سَمِعَ عَنْهُ، وَخَاصَّةً إِذَا مَا عَلِمْنَا أَنَّ ابْنَ بَادِيسِ كَانَ يَتَرَدَّدُ
عَلَى الْجَامِعِ الْكَبِيرِ، وَقَدْ أَمَّ النَّاسَ فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ، وَهُوَ الْمَسْجِدُ الَّذِي زَارَهُ مُحَمَّدُ عَبْدُهُ فِي
قَسَنْطِينَةَ.⁴

¹- المرجع السابق، مج 1، ج 1، ص 74.

²- أحمد حماني "صراع بين السنة والبدعة"، ج 2، (لا.ط، لا.م، دار البعث، د.ت)، ص 229.

³- المرجع نفسه، ج 2، ص 231.

⁴- عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، المرجع السابق، مج 1، ج 1، ص 74 . 75.

خامسا . تكوينه:

حفظ القرآن على يد الشيخ: محمد المداسي، كما تلقى المبادئ الأولى في العلوم على يد مشايخ، أشهرهم المرّي الكبير: الشيخ حمدان لويسي (ت: 1920م) - الذي كان له الفضل الكبير في توجيهه الوجهة الصالحة - قبل أن يُهاجر إلى المدينة المنورة.

أذن له أبوه بالهجرة إلى تونس، فالتحق بجامعة الزيتونة عام 1908م، بعد أن منعه من أن يلتحق بأستاذه مُهاجراً إلى المدينة المنورة.

وفي نهاية السنة الدراسية (1910م/1911م)، نال شهادة التطوع من الجامع الأعظم، وكان ترتيبه الأول بين جميع الطلبة الناجحين، كما كان الطالب الجزائري الوحيد المُتخرّج من الزيتونة في تلك الدورة.

وقد نشرت ذلك جريدته: (المشير) التونسية في عددها الصادر في: 1911/08/06م¹، ثم مكث عاماً بتونس للتدريس بعد تخرجه.

ثم عاد إلى الجزائر حاملاً بأن يكون فيها - كما في غيرها من الأقطار - معاهد علمية، فاتخذ من المسجد الكبير بقسنطينة منبراً للتعليم، وبث الوعي واليقظة في الشعب، فكان من شعاراته قول شوقي . رحمة الله . من قصيدته المشهورة: "سلوا قلبي":

" فعلم ما استطعت لعلّ جيلاً ••• سيأتي يُحدث العجب العجائباً ."

سادسا . سفره إلى الحج:

سافر إلى الحج (1331هـ/1913م) بعد أن استأذن من أبيه، وهناك بالمدينة المنورة التقى ثلّة من العلماء العظام، منهم: شيخه حمدان لويسي الجزائري، والشيخ حسين أحمد الهندي، الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر - بعد أن أبدى ابن باديس رغبته في البقاء في المدينة - لما توسّم

¹- المرجع السابق، مج 1، ج 2، ص 233.

فيه قائلاً له: " إرجع إلى وطنك يا بني فأمثالك هنا كثير، يُغنون عنك ويقومون مقامك، ولكنهم في وطنك قليل، وخدمة الإسلام هناك أجدر بك، وأنفع له من بقائك هنا"¹.

وقد ألقى الإمام ابن باديس أمامهم دروساً في الحرم المدني، كما التقى بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهناك تذاكراً كثيراً في مستقبل الجزائر .

كما أوصاه شيخه: حمدان لونيسي بأن لا يتولّى الوظيفة، ولا يتخذ علمه سُلماً لأغراضه الدنيوية، وقد وفى ابن باديس بعهد شيخه.

سابعاً . العودة إلى الوطن:

في رحلة رجوعه إلى الوطن عرّج على مصر، أين أجازه مفتي الديار المصرية، الشيخ محمد بخت المطيعي، الذي لقيه بالقاهرة، كما أجازه كبير علماء الإسكندرية، الشيخ أبو الفضل الجيزاوي.

أخذ يُلقى الدروس العامة - منها التفسير والحديث - في الجامع الأخضر، بمجرد عودته إلى قسنطينة، في ربيع سنة: 1332هـ / 1914م.

كما كان يُلقى بعض الدروس للطلبة في مسجد (سيدي قموش)، وأما الصبيان - تلاميذ الكتابيب القرآنية - فكان يُلقى عليهم الدروس في كُتّابين اثنين :
الأول: كُتّاب (سيدي فتح الله) برحبة الصُوف - قسنطينة - .

والثاني: كُتّاب الزاوية القادرية (سيدي عبد المومن) بوسط المدينة القديمة. وخطّط لإعلان الدعوة العامة، وقدّرها: عشر سنوات.

¹- المرجع السابق، مج1، ج 2، ص 234 . 235.

ثامنا . أهمُّ شيوخِه:

ذَكَرَ تركي رابح عمامرة¹ أن شيوخ وأساتذة ابن باديس كثيرون²، منهم:

1/ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْمَدَّاسِي: الَّذِي حَفِظَ عَلَى يَدَيْهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ- وَعَمْرُهُ لَمْ يَتَجَاوَزِ الثَّلَاثَةَ عَشَرَ سَنَةً -، وَهُوَ أَوَّلُ مَعْلَمٍ لِابْنِ بَادِيسِ .

2/ الشَّيْخُ حَمْدَانُ لُونَيْسِي: الْعَالِمُ الْمُتَصَوِّفُ الَّذِي تَلَقَّى عَلَيْهِ دِرَاسَتَهُ الْإِبْتِدَائِيَّةَ، فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِمَدِينَةِ قَسَنْطِينَةِ، قَبْلَ أَنْ يُسَافِرَ لِلدِّرَاسَةِ فِي جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ بِتُونِسِ سَنَةَ (1908م). وَقَدْ كَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ بَعِيدُ الْمَدَى فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّةِ ابْنِ بَادِيسِ، حَتَّى ظَلَّ يَذْكُرُهُ بِإِحْلَالِ كَبِيرِ طَوَالِ حَيَاتِهِ.

3/ الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ النَّخْلِي الْقَيْرَوَانِي: زَعِيمُ النُّهْضَةِ الْفِكْرِيَّةِ بِالزَّيْتُونَةِ. وَالَّذِي أَحْسَنَ تَوْجِيهَ

ابن باديس نحو كتاب الله وفهمه، وأثر فيه تأثيراً عظيماً.

4/ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ: بَاعَثَ النُّهْضَةَ الْإِصْلَاحِيَّةَ بِالزَّيْتُونَةِ، وَالَّذِي لَازَمَهُ قَرَابَةُ الثَّلَاثِ السَّنَوَاتِ، وَأَخَذَ عَنْهُ الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ، وَدِيَوَانَ الْحِمَاسَةِ لِأَبِي تَمَامٍ، وَأَثَرَ فِي تَكْوِينِهِ تَأْثِيرًا كَبِيرًا.

5/ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْخَضِرُ بْنُ حَسِينِ الْجَزَائِرِيِّ (الطَوْلَقِيُّ الْبِسْكَرِيُّ): الَّذِي دَرَسَ عَلَيْهِ فِي الزَّيْتُونَةِ، وَفِي مَنْزِلِهِ بِتُونِسِ.

6/ الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ الصَّادِقُ النَّيْفَرِيُّ: الْأَسْتَاذُ بِجَامِعِ الزَّيْتُونَةِ.

¹- تركي رابح عمامرة، ولد بمدينة سطيف (1932م)، تلقى تعليمه الابتدائي بمدارس جمعية العلماء، زاول تعليمه الثانوي والعالى في الزيتونة بتونس، نال شهادة الليسانس من جامعة القاهرة: 1956م، والماجستير والدكتوراه: 1962م، (ينظر: تركي رابح عمامرة. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المرجع السابق . ملاحظه).

²- تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المرجع السابق. ص157/158.

7/ الشيخ سعيد العياضي (الجزائري): المصلح المجدد.

8/ الأستاذ محمد بن القاضي: الأستاذ بجامع الزيتونة.

9/ الشيخ أبو محمد بلحسن بن الشيخ المفتي النجار: الأستاذ بجامع الزيتونة.

10/ الأستاذ البشير صفر: السياسي والمؤرخ التونسي المعروف. الذي أرجع إليه ابن باديس الفضل في معرفته بالتاريخ العربي والإسلامي والقومي، وقد قال فيه: " وأنا شخصيا أصرّح بأنّ كراريس (البشير صفر) الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطلاعني على تاريخ أمّتي، وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر".¹

تاسعا. من أبرز تلامذته:

استمر الإمام ابن باديس في بذل مجهوداته العظيمة في ميدان التكوين والتربية، وأصبح طلابه يعدون بالمئات، ويقوم على التدريس معه نجباء المتخرجين من مدرسته أو مريديه²، منهم الشيخ فضيل الورتلاني، الشيخ محمد جلول الملياني، الشيخ عبد المجيد بلحيرش... .

ولأن طلبته أغلى وأعز ما عنده، فقد كان يشقى ويبدل كل ما في وسعه لأجل راحتهم، وكان من أعظمهم في الأولين: الشيخ مبارك المليي و عبد السلام السلطاني و محمد بن العابد السماتي و موسى الأحمدي و الفضيل الورتلاني و محمد سعيد الزاهري و زهير الزاهري و عبد الحفيظ الجنان وغيرهم..

عاشرا - ابن باديس و الصّحافة:

أدرك الإمام ابن باديس ما للصحافة من دور عظيم وخطير، للنهوض بالأمة الجزائرية، وإصلاح أحوالها، وتحريرها من قيود الاستعمار الفرنسي، فكان أول مطبعة جزائرية إسلامية،

¹- المرجع السابق، ص160.

² أحمد حماني. صراع بين السنة والبدعة، مرجع سابق، ج2، ص262.

وكان أعضاؤها من تلامذته النابغين المخلصين، فأصدر صحيفة "المنتقد"، وكان عددها الأول يوم عيد الضحى المبارك من عام: 1343هـ/11 جويلية 1925م. ولكن السلطات الفرنسية أصدرت قرارا بإغلاقها، وذلك بعد بروز (18) عددا منها. فخلفتها مباشرة "الشهاب"، فكانت نورا ساطعا في بحر من الجهل والظلمات، ومنبرا للحق ودحض الباطل والخرافات.

وعندما تأسست "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" يوم: 17 ذو الحجة 1349هـ/05 ماي 1931م، وكان ذلك ردا مُناسبا ومُوفقا على احتفالات فرنسا، بمرور قرن من الزمان على احتلالها للجزائر. فكانت جريدة "السنة" لسان حال الجمعية، ثم عطلت، فجاءت جريدة "الشريعة"، وبدورها عطلت، فأخرجت جريدة "الصراط السوي"، ثم عطلوها. معللين ذلك بعزل واهية، لكن جهود العلماء لم تكل، ونفوسهم لم تمل لأجل تحرير وعتق العقول قبل التراب.

حادي عشر . وفاته:

لفظ الإمام ابن باديس أنفاسه الأخيرة في ليلة الثلاثاء الثامن من ربيع الأول سنة 1359هـ الموافق: 16 أبريل 1940م في مسقط رأسه بمدينة قسنطينة، ومركز نشاطه التربوي والإصلاحي والسياسي والصحافي. ودفن في مقبرة آل باديس الخاصة.

لقد عاش الشيخ عبد الحميد بن باديس للفكرة والمبدأ، و مات وهو يهتف: (فإذا هلكت فصيحتي ... تحيا الجزائر والعرب)، ولم يجد عن فكرته أو مبدئه قيد أنملة، حتى آخر رمق في حياته، ولم يبال بصحته الضعيفة التي تدهورت كثيرا في السنين الأخيرة قبل وفاته، حيث أصيب بسرطان في الأمعاء لم يتفرغ لعلاجه، فقضى عليه في النهاية ¹.

وقد شُيِّعت جنازته في اليوم التالي وسط جموعٍ غفيرةٍ من الجزائريين، وكان المشيِّعون خمسين ألفاً أو يزيدون، جاؤوا من كافة أنحاء القطر الجزائري لتوديعه الوداع الأخير ².

¹ تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المرجع السابق، ص188.

² المرجع نفسه، ص230.

المطلب الثاني

مقاصد الشريعة (المفهوم، التطور، والأهمية)

أولاً: مفهوم مقاصد الشريعة:

سأقتصر على تعريف مقاصد الشريعة باعتبارها علماً على عِلْمٍ مُعَيَّنٍ. فالقدماء من أهل العلم لم يذكروا لها تعريفاً خاصاً بهذا الاعتبار، بل أطلقوا عليها عدة تعبيرات، متفاوتة التطابق مع مدلولها، مثل: الحكمة المقصودة بالشريعة، ومطلق المصلحة، ونفي الضرر ورفعها، والمعاني، والكليات الشرعية الخمس المشهورة، ومعقولية الشريعة وتعليلاتها وأسرارها... أما الإمام الشاطبي - شيخ المقاصد - فلم يعط تعريفاً خاصاً لها، ولعل ما زهده في تعريف المقاصد كونه كتب كتابه للعلماء، بل للراسخين في علوم الشريعة.¹

وأما العلماء المعاصرون، فقد ذكروا لها تعريفات كثيرة، تتقارب في جملتها من حيث الدلالة على معنى (مقاصد الشريعة) ومسامها، ومن أبرز هذه التعريفات ما يلي:

1/ تعريف الإمام محمد الطاهر بن عاشور²: " مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة. فيدخل في هذا: أوصاف الشريعة، وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضاً معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها "³.

¹- أحمد الريسوني. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (ط4)، المملكة العربية السعودية: نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب، 1416هـ/1995م، ص17.

²- محمد الطاهر بن عاشور (1879م/1973م)، تقلد عدة مناصب علمية، منها: قاضي القضاة سنة 1931م، وعمادة مجلس الشورى المالكي، ومشيخة الزيتونة، له مجموعة من المؤلفات المذكورة في كتابه: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. (ينظر: عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره، مج1، ج1، المرجع السابق، هامش، ص75).

³- محمد الطاهر بن عاشور. مقاصد الشريعة الإسلامية (ط5)، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، مصر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. 1433هـ/2012م، ص: 55.

- 2/ تعريف العلامة عَلَّال الفاسي¹: " المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كلِّ حُكْمٍ من أحكامها"²
- 3/ تعريف أحمد الريسوني³: "هي الغايات التي وُضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد"⁴.
ثانياً: إسهامات العلماء في مقاصد الشريعة قديماً وحديثاً:

معلوم أنَّ الاهتمام بمقاصد الشريعة، يمارسه الفقهاء تفصيلاً (تطبيقاً) ، بينما يمارسه علماء الأصول تأصيلاً (تنظيراً) ، لذلك سيكون كلامي محصوراً حول نماذج معينة من علماء الأصول الذين اهتموا بمقاصد الشريعة، دون سردٍ تفصيليٍّ لكلِّ مَنْ تناول منهم هذا الموضوع. وسأكتفي بذكر أبرزهم وأشهرهم في الدرس الأصوليِّ، من باب التمثيل لا الحصر، وهم:

[1]. أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت: 478هـ): صاحب "البرهان"، وهو من طلائع الإسهامات المؤسسة للمقاصد، وحسبنا أنَّه صاحب أكثر تأثير وأعمقه على تلميذه: الإمام أبي حامد الغزالي⁵.

[2]. الإمام أبو حامد الغزالي (ت: 505هـ): الذي يعتبر امتداداً لشيخه الجويني من خلال كتابه "شفاء الغليل"، وكتابه "المستصفى" الذي تطرَّق فيه إلى المقاصد بأكثر نُضجٍ ممَّن سبقه، وذلك عند تعرضه لحجية الإستصلاح أو - المصلحة المرسله -⁶.

¹ - هو: علال بن عبد الواحد بن عبد السلام بن علال الفاسي الفهري (1910م . 1974م)، نال شهادة العالمية من (القرويين) سنة 1932م، سياسي وأديب مغربي، مؤسس حزب الاستقلال، وزعيم الحركة الوطنية المغربية، وأحد أعلام الحركة الإسلامية الحديثة في القرن 20. (ينظر: الموسوعة الحرة . ويكيبيديا.)

² - علال الفاسي . مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها (ط5، لا.م، دار الغرب الإسلامي، 1993هـ) ص7.

³ - ولد: 1372هـ/ 1953م بالمغرب، نال شهادة الدراسات العليا: 1986م، ودبلوم الدراسات العليا: 1989م، ودكتوراه الدولة: 1994م. عمل عدة سنوات بوزارة العدل، كما عمل عدة سنوات بالتعليم الثانوي. (ينظر: أحمد الريسوني. نظرية المقاصد عند الشاطبي، المرجع السابق، الصفحة الداخلية للغلاف).

⁴ - أحمد الريسوني ، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، المرجع السابق، ص19.

⁵ - المرجع نفسه ، ص 47.

⁶ - المرجع نفسه ، ص 53.

[3]. الإمام العزُّ بن عبد السَّلام (ت: 660هـ): الذي اشتهر بكتابه "قواعد الأحكام في مصالح الأنام"، وهو كتاب يكاد يكون خاصًّا في مقاصد الشريعة.¹

[4]. الإمام ابن تيميَّة (ت: 728هـ): الذي لا يكاد يخلو كلامه عن الشريعة وأحكامها، من بيان لحكمها ومقاصدها، وكلُّ ذلك منشور في فتاويه و تصانيفه، أين مزج بين النَّظريِّ والتَّطبيقيِّ.

[5]. الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (ت: 751هـ): الذي زاد منهجَ شيخه تأصيلًا وتفصيلًا وتفرُّعًا.

[6]. الإمام نجم الدِّين الطوئيُّ (ت: 716هـ): الذي أخذَ عليه تعظيم منزلة المصلحة في الشريعة².

[7]. الإمام إبراهيم بن موسى اللخميُّ الشهير بالشاطبيِّ (ت: 790هـ): صاحب "الموافقات"، الذي يعتبر - وبحقِّ - أوَّلَ تصنيفٍ يستوعب مباحث مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، وقد حظي بالتقدير الكبير، والعناية الفائقة حديثًا.³

أمَّا في العصر الحديث، فقد بدأ الاهتمام بالمقاصد يأخذ النَّصيب الأوفَرَ تصنيفًا و دراسةً، كما استقرَّ عند المعاصرين مفهوم المقاصد، بالإضافة إلى بعض الجوانب التَّطبيقيَّة في الأحكام الشرعيَّة.

ثالثًا: أهميَّة مقاصد الشريعة:

يمكن تجلية هذه الأهميَّة في النقاط التَّالية:

- تعميقُ فهمِ المجتهدِ للغايات والأهداف التي جاءت الشريعةُ لأجل تحقيقها.
- العلمُ بالمقاصد سبيلٌ أرشد لردِّ المشتبهاتِ من المسائلِ والأحكامِ إلى المحكِّم منها.
- تعزيزُ اليقينِ بصدق ما جاء به النَّبيُّ الكريمُ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ، وذلك من خلال مُعاينةِ انتظامِ الشريعةِ في معانٍ عامَّةٍ تحكُّمها وتضبط مساراتها وأحكامها.
- العلمُ بها سرٌّ من أسرارِ خُلودِ الشريعةِ، واستيعابها لأحكامِ الحوادثِ والنَّوازلِ.

¹ - المرجع السابق، ص 65.

² - ينظر: مصطفى زيد. المصلحة في التشريع الإسلامي، تعليق وعناية: محمد يسري (لا.ط ، مصر: دار اليسر للطباعة و النشر، د.ت) ص 84، وما بعدها.

³ . من المعاصرين الذين تناولوا الشاطبي بالدراسة : أحمد الريسوني، في: " نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي "، حمادي العبيدي ، في: " الشاطبي ومقاصد الشريعة ".

أما بالنسبة للإمام ابن باديس، فتتجلى هذه الأهمية في اهتمامه بمقاصد الشريعة تفعيلاً وتطبيقاً، وهذا ما نلمسه من توافق بين هذه المقاصد، وبين الأهداف التي رسمها الإمام، وخطط للوصول إليها، بحسب الأهمية، مع مراعاة الظروف والإمكانات - زماناً ومكاناً -.

ولم يكن لابن باديس - في الحقيقة - أهدافٌ متعددةٌ، وإنما كان له هدفٌ واحدٌ متعدّدُ الفروع والوجوه، هذا الهدف يتمثل في إنقاذ الشخصية الجزائرية ممّا سقطت فيه من ضياع وانحيار حضاريّ شاملٍ على كافّة المستويات¹. وتتمثل هذه الأهداف - إجمالاً - فيما يلي:²

1./ إحياء التدين والمحافظة على الشخصية الإسلامية للمجتمع الجزائريّ.

2./ إحياء اللّغة العربيّة وحفظ مكانتها في المجتمع الجزائريّ.

3./ تحرير الشعب الجزائريّ واستقلاله عن فرنسا.

4./ المحافظة على وحدة الشعب الجزائريّ.

فهو - رحمه الله - من أوّل خُطوة اختار الطّريق الموافق لمقتضى مقاصد الشّارع، فراعى حماية أمّ المقاصد الشّرعية وأعلى كلياتها، ألا وهو حفظ الدّين³، الذي تُبنى عليه شخصيّة الشعب الجزائريّ، واللّغة العربيّة - لغة القرآن - التي هي الجبل المتين بين ماضي الأُمّة المجيد، وحاضرها الأغرّ، ومستقبلها البهيج.

ولن يكتمل هذا إلاّ بتحرير هذا الشعب من قيود الاستعمار، وحبائل خداعه المتنوعة : (التّنصير المسيحيّ . أصحاب البدع والضّلالات في الدّين . دعاهُ التّجنيس و الإدماج . دعاهُ الفرنسة والتّغريب). والمحافظة على وحدة الشعب الجزائري، بإبطال مكائد الاستعمار.

¹ مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده (ط1، الجزائر: دار فرطبة للنشر والتوزيع، 1426هـ/2006م). ص87.

² المرجع نفسه، ينظر: ص88. وما بعدها.

³ المرجع نفسه، ص88.

وكُلُّها أهدافٌ تتوافق تمامَ التَّوافقِ مع ما فقَّهَهُ من مقاصد الشَّارع، وما أدركه من أسرار شريعته السَّامية.¹

فعلَّمه العميق بمقاصد أحكام الشَّريعة، ساعده على الفهم الصَّحيح، ثم أعانه على التَّطبيق الرشيد، والتَّنزيل السَّديد، وفي هذا المعنى يقول عبد المجيد النُّجار²: "إنَّ للعلم بالمقاصد المبتغاة من القوانين والشَّرائع، أهميةً كبيرةً لمن يهتُمُّ أمرها بالتَّشريع أو التَّطبيق، ذلك لأنَّ العلم بالمقصد من القانون أو الحكم الشَّرعيّ، يفيد أيّما إفادة في فهمه الفهم الصَّحيح أولاً، ثمَّ في تطبيقه التَّطبيق الرشيد ثانياً...".³ ثم يقول: "...فإذا ما غابت عنه المقاصد منها، فإنَّه قد يشتطُّ به الفهم، كما قد يشتطُّ به التَّطبيق إلى مالٍ لا تتحقَّق فيه تلك المقاصد، التي من أجلها شرعت".⁴

فلقد جاهد الإمام ابن باديس من أجل دعوته الإصلاحية، مُستغلاً كلَّ الفرص والوسائل الممكنة بين يديه - آنذاك -، حيث كان في دعوته هذه يسير وفق مقاصد الشَّرع الحنيف، إلاَّ أنَّه لم يفرّد مقاصد الشَّريعة بمؤلَّفٍ مُستقلٍّ، ولم يشر إليها في إملاءاته المختصرة في علم الأصول، وذلك ربّما راجعٌ إلى أنَّه كان يركِّز في عمله الإصلاحية على الجانب العمليّ التَّكوينيّ، أكثر منه على الجانب التَّنظيريّ الفلسفيّ⁵. ولم يكن رجلٌ مثل ابن باديس رحمه الله. وهو العالم المسلم العامل. ليغيب عنه إدراك أمهات المقاصد الشَّرعية، بل حتّى مقاصد تفاصيل وجزئيات الأحكام

¹- المرجع السابق، ص 98.

²- ولد بتونس عام: 1945م، حاصل على الدكتوراه من الأزهر: 1981م، عضو هيئة التدريس بالجامعة الزيتونية من سنة: 1975م، من مؤلفاته: (العقل والسلوك في البنية الإسلامية)، (خلافة الإنسان بين الوحي والعقل)، وغيرها. (ينظر: عبد المجيد النُّجار. فقه التدين فهما وتنزيلا، ج 2. ط 1، قطر: مطابع مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، جمادى الأولى 1410هـ، الغلاف الخارجي).

³- عبد المجيد النُّجار. مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة (ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2008م) ص 18.

⁴- المرجع نفسه، ص 19.

⁵- السعيد رحمانى، مقاصد الشريعة الإسلامية عند ابن باديس. مجلة: رسالة المسجد، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، السنة الرابعة، العدد: 2، ذو القعدة 1427هـ/نوفمبر 2006م، ص 17.

الشَّرْعِيَّة. إِنَّ مَجْرَد الشُّكِّ فِي ذَلِكَ يُعْتَبَرُ نَوْعًا مِنَ الحَطِّ بِقَدْرِ الرَّجْلِ، وَعَمَقِ فِكْرِهِ، وَأَصَالَةِ رَأْيِهِ وَعِلْمِهِ.¹

من هنا ندرك بيقينٍ أَنَّ الإمام ابن باديس اهتمَّ بمقاصد الشَّرِيعَةِ تطبيقيًا وتنزيلاً، ومعلوم عند أهل هذا الفنِّ، أَنَّ تفعيل وتنزيل المقاصد يُعدُّ الشَّطْرَ الثَّانِيَّ والأَسَاسَ الضَّرُورِيَّ بعد الفهم والاستيعاب.² وقد راعى ابن باديس مبررات أهميَّة تطبيق مقاصد الشَّرِيعَةِ، والتي أهمُّها وأبرزها أَنَّ طبيعة الحوادث والمستجدات الكونيَّة والإنسانيَّة التي تقتضي المعالجة الشَّرْعِيَّة لها وفق المنظور المقاصديّ المتين، ومن ثَمَّ فَإِنَّ تطبيق المقاصد في حياة النَّاس أمر لا بدَّ منه، ولا محيد عنه، حتَّى تستقيم الحوادثُ، ويصلح الخلقُ، وتتحقَّق الأحكامُ والتَّعاليمُ والقيَمُ.³

¹ مسعود فلوسي، البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس. مجلة العلوم الإسلامية (الموافقات)، الجزائر: المعهد الوطني العالي لأصول الدين، السنة السادسة، العدد: 6، 1418هـ/ (1997م . 1998م)، ص 589.

² نور الدين بن مختار الخادمي. الاجتهاد المقاصدي. حجيته، ضوابطه، مجالاته. ج1 (ط1، قطر: مجلة الأمة، العدد: 65، السنة 18، جمادى الأولى 1419هـ/ أغسطس . سبتمبر 1998م)، ص 61.

³ المرجع نفسه، ج1، ص 61.

المطلب الثالث

أثر بعض شيوخ ابن باديس في تكوينه المقاصدي

لقد سبقت الإشارة - في المطلب الأول من المبحث التمهيدي - إلى أهم شيوخ الإمام ابن باديس الذين تتلمذ ودرس عليهم، وأخذ عنهم العلوم. ومعلوم أنّ الفكرة قد تُقرأ في كتاب أو تلقى في درسٍ فُتُسمع، أو تُستنبط من تأملٍ واستقراءٍ، ونصيبُ العلم والمعارف في بلورة أفكارنا وتشكيل تصوراتنا، ورسم مناهجنا في الحياة لا سبيل إلى إنكاره.¹

ولكن هذه المراجع العلميّة التي أثّرت وساهمت في تكوين الإمام ابن باديس، بالإضافة إلى استعداده الفطريّ، يُمكن أن نجعلها قسمين:

القسم الأول: شيوخه وأساتذته الذين أثّروا في تكوينه الفكريّ تأثيراً مباشراً، وهم بعض مشايخه الذين وجد في آرائهم وأفكارهم وأساليبهم في التعليم، ما يُلائم طبعه وتطلّعه، وميله إلى الاجتهاد واستعمال العقل، ومنهم:

- الشّيخ حمدان لونيّسي: العالم المتصوّف الذي استطاع أن ينفذ إلى أعماق تلميذه، فيطبع حياته العلميّة والعملية بطابعٍ روحيّ وأخلاقيّ لم يفارقه طوال حياته، حتّى ظلّ ابن باديس يذكر له هذا التأثير على نفسيّته بكلّ إجلالٍ واحترامٍ حتّى آخر رمقٍ في حياته.
- الشّيخ محمّد الطاهر بن عاشور: الذي قال فيه: "وإن أنس فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أوّل ما قرأت عليه، فقد حبّبتني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثت فيّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمنثور، وأحييت فيّ الشّعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها، كما أعتزّ بالإسلام"².

¹- عمار بن مزوز. عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح (ط2)، الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر

والتوزيع، 2015م) ص61.

²- تركي رايح عمامرة. الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، مرجع سابق. ص159.

• الشيخ محمد النخلي القيرواني: وهو أحد رجال التفسير والإصلاح الديني، ومن أعظم مشايخ ابن باديس تأثيراً في نفسه، وحسن توجيهه نحو كتاب الله وفهمه.¹

والذي تأثر به تأثراً عميقاً في ناحية فهم القرآن الكريم وتفسيره، على أن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور هو الذي مهّد له سبيل التعرّف بالشيخ النخلي والاتصال به. فيقول عن تأثره بهما: "عرفت هذا الأستاذ (الطاهر بن عاشور) في جامع الزيتونة، وهو ثاني الرجلين اللذين يُشار إليهما بالرُسوخ في العلم والتّحقيق في النظر، والسموّ والاتّساع في التّفكير. أوّلهما العلامة الأستاذ شيخنا (محمد النخلي) القيرواني رحمه الله، وثانيهما الأستاذ شيخنا (الطاهر بن عاشور)، واتّصلت بهما حتّى حصلتُ على شهادة العالمية، ووجدتُ لِنفسي الاختيار، فاتّصلتُ بهما عامين كاملين، كان لهما في حياتي العلميّة أعظم الأثر، على أن الأستاذ ابن عاشور اتّصلت به قبل نيل الشهادة بسنة، فكان ذلك تمهيداً لاتّصالي الوثيق بالأستاذ النخلي".² وهو نفسه. أي الإمام النخلي. الذي أوصاه بقوله: "اجعلْ ذهنك مصفاةً لهذه الأساليب المعقّدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة، يسقطُ الساقطُ، ويبقى الصّحيح وتستريح".³

• الأستاذ البشير صفر: الذي قال فيه الشيخ ابن باديس: "وأنا أصرّح بأنّ كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم، الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطلاع علي تاريخ أمّتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الرّوح التي انتهت بي اليوم لأنّ أكون جندياً من جنود الجزائر".⁴

القسم الثاني: هم أساتذته وشيوخه الذين لم يتلقّ عليهم العلم بطريق مباشر، وإنما تتلمذ عليهم عن طريق آثارهم وكتاباتهم، وقد حدّثنا عن واحدٍ منهم حديثاً مفصّلاً، وهو الأستاذ (طاهر الجزائري)⁵. وكان يدعوه "شيخني". وقال فيه: "هو الذي ربّي عقلي، وهو الذي حبّب

¹ أحمد حماني. صراع بين السنة والبدعة. مرجع سابق. ج2، ص232.

² تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المرجع السابق، ص160.

³ المرجع نفسه، ص161.

⁴ المرجع نفسه، ص160.

⁵ هو: طاهر بن صالح بن أحمد موهوب السمعوني الجزائري، هاجر والده صالح من الجزائر إلى دمشق عام 1263هـ، وتولى قضاء المالكية بها، وفيها ولد له "طاهر". (ينظر: تركي رابح عمامرة. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المرجع السابق، ص161).

إليّ هذا الاتجاه الفكريّ، منذ أن كنتُ طفلاً إلى أن صرتُ رجلاً"¹. ومنهم الشّيخ محمّد عبده، والإمام أبو بكر بن العربيّ (ت: 543هـ) صاحب "العواصم من القواصم"، ومنهم الشّيخ محمّد بخيت المطيعي².

والظّاهر أنّ هؤلاء العلماء كان لهم الأثر الكبير في تكوين ابن باديس روحاً وعقلاً، علمياً وعملياً، قلباً وفكراً، وهو ما ساهم في تكوينه المقاصديّ، ولو بطريق غير مباشرٍ، لأنّ الدّرس المقاصديّ يحتاج إلى فهم أسرار النصوص الشّرعية، والغوص في حكم تشريع الأحكام، وعدم الجمود عند الألفاظ ومباني الأدلّة، بل تجاوز ذلك إلى معانيها، وسبر أغوارها.

ومعلوم أنّ المدرسة التي تأثّر بها ابن باديس في تكوينه العلميّ هي مدرسة الإصلاح، أي مدرسة محمّد عبده، وجمال الدّين الأفغانيّ، وهي التي تقوم على بعث الفكر، وتجديد مناهج التّفكير، وإحياء وظيفة العقل التي تغشّتها رواسب التّقليد، والتّعصّب الممقوت، وغطّتها أغشية الجهل، ولقّتها ظلام الخرافات والضّلالات. والتي شوّهت معاني النصوص الشّرعية، وصرفتها عن مقاصدها وأسرارها، وأبعدتها عن حكمها الحقيقيّة، فضلّ العقل وأضلّ.

والذي يؤكّد ذلك، قول الإمام التّخليّ القيروانيّ . السّابق . لتلميذه ابن باديس: " اجعل ذهنك مصفاةً لهذه الأساليب المعقّدة... "، وتعليق ابن باديس على ذلك بقوله: " فو الله لقد فتح بهذه الكلمات القليلة على ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها"³. فمن خلال هذه الوصيّة اكتسب ابن باديس وعياً عميقاً، نتيجة صلّته الوطيّدة بكتاب الله تعالى.

وكما لا ننسى أنّ الإمام ابن عاشور كان له باعٌ واسعٌ في مقاصد الشريعة، حتّى وإن كان الإمام ابن باديس قد صرّح بأنّه تأثّر بدروسه التي تناول فيها ديوان "الحماسة" لأبي تمام. إلاّ أنّه

¹- تركي رابع عمامرة. الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلاميّ والتربية في الجزائر. المرجع السابق، ص162.
²- ولد بقرية المطايعة بمحافظة أسبوط، إلتحق بالأزهر عام 1282هـ، درس الفقه على المذهب الحنفي، والفلسفة على جمال الدين الأفغاني وحسن الطويل، حصل على شهادة العالمية سنة 1292هـ، تولى منصب " مفتي الديار المصرية " سنة: 1914م، ت: 1935م. (تركي رابع عمامرة، المرجع نفسه، ص163).
³ المرجع نفسه، ص161.

لمح بعبارة توحى إلى هذه الرُّوح المقاصديّة، حين قال: " وبثت فيّ . أي دروسه . روحًا جديدًا في فهم المنظوم والمنثور...".

وهذا التّكوين ساهم في تأهيل ابن باديس أن يُصبح عالماً متمكّنًا من علوم كثيرة، ذا ثقافة موسوعيّة، مجتهدًا في علوم شتّى، ومُطلّعا على فنون متعدّدة. وإطلاعه هذا هو الذي مكّنه من أن يؤدّي عمله الإصلاحيّ هذا أداءً منضبطاً بالمقاصد الشرعيّة، هادفًا إلى تحقيقها، والعمل على الحفاظ عليها في واقع حياة المجتمع الجزائريّ.¹

ومن البيّن أن التأثير لا يُقاس بطول المدّة أو قصرها، وإنما يُقاس بمدى فُدرّة الأستاذ ونباهة الطالب، فإنّ فكرة خفيفةً واحدةً أو إشراقاً بيانيّةً يتلقاها طالبٌ نابهٌ من أستاذٍ عظيمٍ في دقائق معدوداتٍ، قد تُحوّل مساره الفكريّ، وتُغني ذائقته الأدبيّة طيلة حياته.²

¹- مسعود فلوسي. البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس. مرجع سابق، ص589.

²- علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس. (ط1، لبنان: دار ابن كثير، 1437هـ/2016م) ص117.

خلاصة المبحث التمهيدي

ضمّنتُ هذا المبحث التمهيدي تعريفا موجزا بالإمام عبد الحميد بن باديس، مولدًا ونشأةً ووفاءً وتكوينًا، مع ذكر أهمّ شيوخه وتلامذته، مُشيرًا إلى أهمّ أعماله الإصلاحية، ثم اشتغاله بالصحافة واستغلاله لها في دعوته وتربيته للناشئة.

ثم تطرقتُ إلى بيان مفهوم مقاصد الشريعة الإسلامية، معرّجًا إلى إسهامات أهمّ العلماء فيها قديمًا وحديثًا، ومُوضّحًا لأهمّيّتها، وكيف استفاد منها الإمام ابن باديس تطبيقًا وتنزيلًا؟ وأخيرًا كان ختام هذا المبحث يدور حول أثر بعض شيوخ الإمام ابن باديس، وتأثيرهم في تكوينه المقاصديّ.

المبحث الأول

اهتمام ابن باديس بفقہ المقاصد

وقد تناولتُ في هذا المبحث ثلاثة مطالب، وهي كما يلي:

المطلب الأول: فقه المقاصد في مجال التدريس والتعليم عند ابن باديس.

المطلب الثاني: فقه المقاصد في مجال الدعوة عند ابن باديس.

المطلب الثالث: فقه المقاصد في مجال الفتوى ومراعاة الحال والظروف زمانا ومكانا عند ابن باديس.

المطلب الأول

فقه المقاصد في مجال التعليم والتدريس عند ابن باديس

رغم أنّ ابن باديس لا يوجد في آثاره ما يشير إلى اهتمامه بمقاصد الشريعة بطريقة مباشرة، ولم يظهر أنه تطرّق إليها في دروسه وكتاباتة المختلفة، إلا ما كان عرضاً، كتعريفه للاجتهاد بقوله: "الاجتهاد هو بذل الجهد في استنباط الحكم من الدليل الشرعي بالقواعد المتقدمة، وأهلّه هو المتبحر في علوم الكتاب والسنة، ذو الإدراك الواسع لمقاصد الشريعة، والفهم الصحيح للكلام العربي"¹. وجاء هذا الكلام أثناء تدريسه لعلم أصول الفقه لتلامذته من خلال نُصوص كتاب "مفتاح الأصول في ابتناء الفروع على الأصول" للإمام الشريف محمد بن أحمد التلمساني: (710هـ. 771هـ).

ولكن رغم كلّ ذلك، لا يمكن لرجلٍ مثل ابن باديس أن يغيب عنه إدراك أمّهات مقاصد الشريعة، يقول مسعود فلوسي²: "لم يكن رجلاً مثل ابن باديس رحمه الله. وهو العالم المسلم العامل. ليغيب عنه إدراك أمّهات المقاصد الشرعية، بل حتّى مقاصد تفاصيل وجزئيات الأحكام الشرعية"³.

والمتتبع لمسيرة الإمام ابن باديس الإصلاحية والتربوية، سيجد أنه لم يفرد لمقاصد الشريعة الإسلامية مؤلفاتٍ أو مقالاتٍ، يتحدّث أو يُبيّن فيها أهميّة العلم بهذه المقاصد، ولكنّه في

¹ مبادئ الأصول. إمام عبد الحميد بن باديس. تحقيق: عمّار الطّالبي (ط2)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب. 1988م) ص51.

² من مواليد: 1968م بباتنة، حاصل على دكتوراه دولة. أصول الفقه. سنة 2002م. عضو هيئة التدريس بكلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة، منذ حصوله على الماجستير سنة 1994م، رُفّي إلى رتبة أستاذ التعليم العالي سنة 2007م. (ينظر: مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد ابن باديس في الفكر الجزائري والعربي، ط1. الجزائر: جسر للنشر والتوزيع. 2016هـ/1437م، الغلاف الخارجي)

³ مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده، مرجع سابق، ص59.

مختلف مقالاته التي كتبها في مجالات وجرائد الجمعية، وفي خطبه ودروسه التي كان يلقيها على خاصة تلاميذه وعلى عامة الناس، كان يؤكد على هذه المقاصد.¹

أولا . صلاح التعليم أساس الإصلاح:

وهو عنوان مقال كتبه الإمام ابن باديس يُقرّر فيه هذه الحقيقة، فيقول: "لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماءهم، لأنهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم"²، وصلاح هذا التعليم مرهون بالعودة إلى التعليم النبوي.

ومن أبرز مزايا ابن باديس العقلية أنه يجمع بين جانب الفكر وجانب العمل، أي بين النظر والتطبيق، لذا قال مُعبّراً عن هذا المعنى والتصور: "العلم قبل العمل، ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال"³.

والمتتبع لجهود ابن باديس في مجال التدريس والتعليم، يجد أن من أهداف التربية عنده كمال الحياة الفردية والاجتماعية، أي أنه هدف مزدوج: فردي اجتماعي معاً. فيقرّر ذلك بقوله: "إن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً، فإننا نأخذه لنبلع به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل لذلك كله، هو حياة محمد . صلى الله عليه وسلم . في سيرته الطيبة"⁴.

ثانيا . بناء الشخصية الإنسانية:

وهنا يظهر تفكيره المقاصدي، حيث أنه يهدف إلى بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة الجوانب: أخلاقياً وعقلياً وعملياً ونفسياً، ثم يؤكد هذا البعد المقاصدي في موضع آخر، مُدلاً على الكمال الإنساني، فيقول: "وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث: الإرادة والفكر والعمل... وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بد للإنسان منها؛

¹ مسعود فلوسي. البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس. مرجع سابق، ص589.

² عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، مج1، ج1، ص101.

³ المرجع نفسه، ص102.

⁴ المرجع نفسه، ص104.

فالعمل متوقفٌ على البدن، والفكر متوقفٌ على العقل، والإرادة متوقفةٌ على الخلق... فلهذا كان الإنسان مأمورًا بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله وخلقُه وبدنه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوم أخلاقه بالسُّلوك النبويِّ، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء، وتوقّي الأذى والترئُّص على العمل¹.

إنَّ مقصدَه في التَّربية والتَّعليم والتَّدرّيس ذو طابعٍ إنسانيٍّ، يتوافق مع إنسانية هذا الدِّين وعالميتِه، حيث يهدف إلى خدمة الإنسانية، وتكوين الفرد الصَّالح الذي يحترم الإنسانية، رغم اختلاف مذاهبها وعقائدها وتوجُّهاتها، فيقول: "إنَّ خدمة الإنسانية في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها، هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية مَنْ آلينا عليه"²، أي على خدمة الإنسانية.

ثالثا. تكوينُ الشَّخصيةِ الإسلاميَّة:

كما أنَّنا نلمحُ فقهَ الإمام ابن باديس المقاصديِّ من خلال القانونِ الأساسيِّ لجمعية التَّربية والتَّعليم الإسلاميَّة التي أسَّسها سنة 1349هـ/1930م، فنجدُه يذكرُ بعضَ الوسائل التي تُعتبرُ مُكمِّلاتٍ لضرورياتِ المصالحِ والمقاصدِ، إذ جاءَ في هذا القانون: "إنَّ غرضنا من الوجهةِ التَّربويةِ، هو تربيةُ أبناءِ المسلمينَ وبناتِهم تربيةً إسلاميةً، بالمحافظةِ على دينهم، ولغتهم، وشخصيتهم، ومن الوجهةِ التَّعليميةِ تثقيفُ أفكارهم بالعلم، وتعليمهم الصَّنائع، ومن الوجهةِ الماليَّةِ تعويدُ الأمةِ على التبرُّعِ المنظَّم، وتوسيعُ نطاقِ الجمعيةِ بجعلِ قيمةِ الاشتراكِ فرُنكَيْنِ"³.

فهو ينظرُ نظرةً مقاصديةً بحتةً، لِمَا رأى من تهديدٍ للشَّخصيةِ الإسلاميَّةِ بخطرِ الدُّوبانِ والإنكارِ والجحودِ. فيجمعُ في تكوينها بين القلبِ والعقلِ، والرُّوحِ والفكرِ، والتَّربيةِ والتَّعليمِ.

¹- المرجع السابق، ص104 . 105.

²- المرجع نفسه، ص105.

³- المرجع نفسه، ص107.

يقول رفيقُ دربه الشيخُ البشيرُ الإبراهيمي¹. رحمه الله. مُعلِّقًا على هذه الطَّريقة: " عَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يُخْرَجَ مِنْ تِلَامِذَتِهِ رِجَالًا، وَأَنَّهُ يَجْرِي بِهِمْ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ لِيَجْمَعَ لَهُمْ بَيْنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ لَهُمُ الْفَوَائِدَ، وَيُسَابِقُ بِهِمُ الزَّمَانَ، مَا دَامَتِ الْأُمَمُ قَدْ سَبَقَتْنَا بِالزَّمَنِ "2.

رابعاً. مَوْقِفُهُ مِنْ طُرُقِ التَّدْرِيسِ:

لقد وَقَّفَ مَوْقِفَ التَّاقِدِ لِلْمَنَاهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي أَعْتَمَدَتْ فِي عَهْدِهِ، فَجَدَّه يُوجِّهُ نَقْدًا لَطْرُقِ التَّدْرِيسِ فِي جَامِعِ الزَّيْتُونَةِ، مُبَدِّيًا رَأْيَهُ فِيهَا بِعَدَمِ جِدْوَاهَا كَوَسِيلَةٍ لِتَحْقِيقِ الْغَرَضِ مِنَ التَّرْبِيَةِ، لِأَنَّهُ رَأَى فِيهَا. حَسَبَ تَصَوُّرِهِ. مُنَاقَشَاتٍ لَفْظِيَّةً عَقِيمَةً، وَيُعْطِي مَثَالًا عَلَى ذَلِكَ: دَرَسَ التَّفْسِيرَ الَّذِي صَارَ يُدْرَسُ مِنْ أَجْلِ تَطْبِيقِ الْقَوَاعِدِ، لَا مِنْ أَجْلِ فَهْمِ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، وَاعْتَبَرَهُ هَجْرًا لِلْقُرْآنِ، وَابْتِعَادًا عَنْ أَهْدَافِهِ وَأَسْمَى مَقَاصِدِهِ، أَلَا وَهِيَ: تَحْقِيقُ الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى، كَمَا أَمَرَ وَشَرَعَ.

فهو يرى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِيهِ الْعَقَائِدُ الْحَقَّةُ، وَالتَّشْرِيعَاتُ النَّافِعَةُ، وَالْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ، وَأَنَّ غَايَةَ التَّفْسِيرِ وَالتَّذْكِيرِ الْوَاحِدَةَ وَالْوَاضِحَةَ هِيَ: هِدَايَةُ الْبَشَرِ إِلَى الْحَقِّ، وَتَعْرِيفُهُمْ بِهِ³.

وَلَا يَقْتَصِرُ نَقْدُهُ لِلْمَنَاهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ وَطُرُقِ التَّدْرِيسِ الْمَعْتَمَدَةِ فِي عَهْدِهِ عَلَى دَرَسِ التَّفْسِيرِ، بَلْ هُنَاكَ وَجُوهٌ أُخْرَى لِلنَّقْدِ لَطْرُقِ التَّدْرِيسِ فِي الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ، مِنْهَا الْاِقْتِصَارُ عَلَى دَرَاةِ الْفُرُوعِ الْفَقْهِيَّةِ دُونَ الرَّجُوعِ إِلَى الْأَصُولِ، وَدُونَ الْاِعْتِمَادِ عَلَى الْاِسْتِدْلَالِ وَالتَّعْلِيلِ وَالْقِيَاسِ، بَلْ

¹- ولد عام: 1889م بسطيف، تعلم على يد والده وعمه، وأكمل تعليمه في الحجاز بعد هجرته إليها 1911م، شارك في تأسيس جمعية العلماء وكان نائب رئيسها من 1940م إلى 1956م، توفي سنة 1965م. ودفن بمقبرة سيدي محمد. (ينظر: تركي رابح عمامرة. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص 170).

²- الزبير بن رحال. الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية (لا.ط، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت) ص 28.

³- علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس.. مرجع سابق، ص 252..

إنه يعتبر هذا بُعدًا عن القرآن وهجرًا آخر له. يقول: "واقصرنا على قراءة الفروع الفقهيّة مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوارٍ من الألفاظ المختصرة، تفتى الأعمار قبل الوصول إليها"¹.

فهو يعتقد أنه من المحال أن تُضبط الفروع دون أن تُعرف الأصول، والقوانين العامّة التي تندرج تحتها هذه الفروع، وهنا يظهر بجلاءً بعده الأصولي المقاصدي.

خامسا . تدريسه لآيات وأحاديث الأحكام:

لقد قصد الإمام ابن باديس اختياره لتدريس آيات وأحاديث الأحكام، ربط الطلبة بمصادر الشريعة مباشرة، وتكوين الملكة الفقهيّة الاجتهاديّة في أذهانهم، مُعتمدين على الأدلّة، وبعيدين عن الاكتفاء بالتقليد والتعصب المذهبي غير المستند إلى دليل.

ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ الإسراء: 18. يظهر جليًا بعده المقاصدي، بيان المصلحة الشريعية المعتبرة، والأحكام الشريعية المعلّلة بفوائدها، فيقول: "العامل في العبادة الذي يكون قصده إلى ثواب الآخرة، وما عداه من منافع تلك العبادة الملحوظة على سبيل التبع لها، من حيث أنه مصلحة شرعية معتبرة في التشريع، والأحكام الشريعية المعلّلة بفوائدها في الآيات والأحاديث لا تُحصى كثرة"².

فكأن الإمام ابن باديس بهذا المسلك المقاصدي في نقده لمنهج التدريس، يوجّه نظرنا إلى ارتباط المقاصد بشقّ علوم الشريعة، كعلم التفسير، وعلوم الحديث وغيرها...

ثم كأن هذه الروح الناقدّة . ذات البعد المقاصدي . تنهل من روح الإمام الشاطبي، الذي عاصر الأزمة التي عاشها علم أصول الفقه، وهي أزمة مُتعدّدة الوجوه، أهمّها: "ذهول" علم الأصول عن مقاصد الشريعة، لدرجة أن أصبحت بعض آلياته الوظيفيّة . كاللغة . من أهمّ مباحث هذا العلم، والتي استهلكت جهودًا كبيرة، صُرّفت في غير البحث عن مقاصد الشريعة، وتخلية أسرارها. فصار علم أصول الفقه علمًا جافًا لا روح فيه، ولا حراك له.

¹ - عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره، المرجع السابق، مج 1، ج 1، ص 108.

² - المرجع نفسه، ص 206.

فابن باديس رأى في هذه المناهج التربوية وطرق التدريس المتبعة، مضیعةً للأجر والعمر، وانعزالاً عن ضمير الأمة وبعث نهضتها، وفي المقابل سمحت بامتداد الآخر من خلال مناهج التعليم الاستعماري المتطورة. وفي ذلك - بلا أدنى شك - مساسٌ بأهم المقاصد الضرورية، ألا وهي: الدين والعقل. وبضیاعهما تضيع الحياة، ويفسد النسل، وتهلك النفس، ويهدر المال. ومنهجه النقدي هذا يُعتبر في الحقيقة طريقاً للاجتهد واستنباط الأحكام.

وفي معرض تفسيره وبيانه المبدع لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ... مَهْجُورًا﴾. الفرقان: 30. يقول: "ويَن القرآن أصول الأحكام، وأمّهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام..."¹ وها هو يُسفر عن وجه مقاصدي راقٍ، أثناء مدحه للعامل بالقرآن، مُستدلاً بحديث أبي موسى الأشعريّ - رضي الله عنه - عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به، كالأترجة طعمها طيبٌ وريحها طيبٌ..."².

فيقول: "...والعمل بالقرآن يقتضي فهم معانيه، وكذلك كان المخاطبون بهذا الحديث، فإن القرآن بلغتهم نزل، ولهذا لم يقل في الحديث: المؤمن الذي يقرأ القرآن ويفهمه ويعمل به، لأن ذكر الفهم لأولئك المخاطبين حشوٌ، تتحاشى عنه البلاغة النبويّة. فيا أيها المؤمنون تطلبوا معاني ما تقرأون، واعملوا بما تفهمون كي تكونوا أترجة..."³.

¹- السعيد رحمانی، مقاصد الشريعة الإسلامية عند ابن باديس. مرجع سابق، ص 18 و 19.

²- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: (773هـ. 852هـ). فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ج 9، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، رقم: 5427. (لا. ط، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، د. ت) ص: 555.

³- علي محمد محمد الصلاحي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، مرجع

فالإمام ابن باديس قد حَقَّق العلومَ والمعارفَ التي يجب أن تتوفرَ في المفسِّر، من المَلَكَةِ اللُّغويةِ وسعةِ الإطِّلاعِ على السُّنَّةِ، ومقاصدِ الشَّرِيعَةِ وأسرارِ التَّشْرِيعِ.¹

وتناولهُ للأحاديثِ، كان تناولاً موضوعياً، وَذَا بُعْدٍ مقاصديٍّ في فهمِ الحديثِ، مُبتَعِداً عن القراءةِ الجزئيةِ له، وفهمه لهُ على ضوءِ الكلياتِ الواردةِ، لكي لا يقعَ في مَطَبَّاتِ القراءةِ الجزئيةِ للنُّصوصِ، الأمرُ الَّذي جرَّ الكثيرَ من الويلاتِ على الفكرِ الإسلاميِّ. كما أنَّه يراعي في فهمِ السُّنَّةِ المُلابساتِ الزَّمانيةِ والمكانيةِ، فأبى تنزيلِ للسُّنَّةِ على واقعٍ معيَّنٍ، دونَ الأخذِ بعينِ الاعتبارِ لهذا الأمرِ؛ فإنَّه يُؤدِّي إلى الوقوعِ في الحرجِ². ويرى أنَّ ذلكَ من صميمِ فقهِ المقاصدِ.

سادسا . النُّخبَةُ والمرأةُ:

ومن أبرزِ ملامحِ الفقهِ المقاصديِّ لدى الإمامِ ابن باديس في التَّكوينِ والتَّعليمِ، أنَّه لم تقتصرْ عِنايتهُ بالثقافةِ الجماهيريةِ، مع إدراكه لأهميتها، إلاَّ أنَّه ركَّزَ كذلكَ على بناءِ النُّخبَةِ التي تُمثِّلُ . مآلاً . عقلَ الأُمَّةِ ومرجعيتها وقيادتها، لذلكَ اهتمَّ بفتحِ المدارسِ والمعاهدِ، ووضعِ المناهجِ والأنظمةِ التربويةِ التَّعليميةِ.

بل إنَّ الإمامَ انتبه إلى مدى أهميَّةِ وخطورةِ دورِ المرأةِ في النهوضِ والتَّحريرِ وتربيةِ الأجيالِ، وحتىَّ تقومَ بوظيفتها في المجتمعِ على أكملِ وجهٍ وأحسنِ حالٍ، فقد أدركَ بعمقٍ تفكيره، وبعُدَ نظره المقاصديِّ أنَّ المرأةَ كانتَ أحدَ أهمِّ معابرِ الغزوِ الفكريِّ والثَّقافيِّ التي يعتمدُ عليها الاستعمارُ الفرنسيُّ، وأحدَ الثُّغورِ المفتوحةِ والمتاحةِ في جسمِ الأُمَّةِ الإسلاميةِ، ذلكَ أنَّ المجتمعاتِ المسلمةَ في غالبيتها، وخاصةً في تلكِ الظُّروفِ . وللأسفِ .، قد حُكِّمَتْ بالتقاليدِ الجاهليَّةِ، فحُرِّمَتْ من أهمِّ حقوقها وواجباتها، فحُرِّمَتْ من التَّعليمِ باسمِ حمايتها من الفسادِ، وكانَّ الجهلَ خيرٌ من العِلْمِ، بينما سَبَقَ الآخرونَ بإرسالِ البناتِ إلى المدارسِ، فَجَسَّنَ مُعَلِّماتٍ ومُرشداتٍ لبناتِ المسلمين، يُعَلِّمَنَّهُنَّ الفسادَ الَّذي حُشِيَ منه؛ ففسدَ الدِّينُ والعقلُ . وهما مقصداً عظيمانِ من المقاصدِ الضَّروريةِ . .

¹المرجع السابق، ص258.

²المرجع نفسه، ص343.

لذلك أدرك الشيخ ابن باديس هذا الخطر، فأوجب تعليم المرأة وتكوينها تكويناً قائماً على أسس العقيدة وحسن التدبير والتربية، مُستنداً في ذلك إلى الآيات والأحاديث، وبما زخر به تاريخ الأمة الإسلامية من عالِماتٍ وكاتباتٍ كثيراتٍ.

سابعاً . اللُّغةُ وسيلةُ تَعْبِيرٍ وَوَعاءُ تَفْكيرٍ وَسَبيلُ تَغْيِيرٍ :

إنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ الَّتِي اعتبرها الإمامُ ابنُ باديس من أهمِّ ملامحِ الهويَّةِ الإسلاميَّةِ، وخاصَّةً في وجودِ جحافلِ الاستعمارِ الثقافيَّةِ . بوجهٍ خاصٍّ . إلى جانبِ وسائلهِ المدمِّرةِ الأخرى، والَّتِي تهدف إلى تذيوبِ الشَّخصيَّةِ الجزائريَّةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ . فهي . أي اللُّغةُ العربيَّةُ . عنده ليست مجردَ وسيلةٍ للتَّعبيرِ والتَّحاورِ والتَّفاهمِ فقط، بل هي إلى جانبِ ذلك أداةٌ تعبيريَّةٌ وتفاهميَّةٌ، ووعاءٌ تفكيريٌّ، وسبيلٌ تغييريٌّ وبناءٌ ثقافيٌّ.¹

فمفردات اللُّغة ليست وسيلةً للتَّعبيرِ فقط، بل هي أدواتٌ للتَّغييرِ والتَّأثيرِ والتَّحريكِ، وهذا التَّأثيرُ ليس قاصراً ومحصوراً في مجالِ المشاعرِ والأحاسيسِ، بل حتَّى في ميدانِ التَّفكيرِ وإثراءِ الخيالِ وتخصيبيهِ أو تحميدهِ ومحاصرتهِ، كما لا يخفى على الدَّارس أنَّ عُجْمَةَ اللِّسانِ مدعاةٌ إلى عُجْمَةِ القلبِ والفكرِ والعقلِ .

ثمَّ إنَّها لغَةٌ التَّنزيلِ ومفتاحُ فَهْمِهِ وإدراكِ مقاصدهِ، ولذلك أدرك الاستعمارُ الفرنسيُّ أهميَّتها في بناءِ الشَّخصيَّةِ الجزائريَّةِ المسلمةِ، فأراد عزَّها وتهميشها، وإشاعة اللُّهجاتِ العاميَّةِ المحليَّةِ، وبعث اللُّغاتِ العرقيَّةِ، كبديلٍ حضاريٍّ وثقافيٍّ، وليست كوسيلةٍ تفاهمٍ محليٍّ .

ومن هنا ندرُكُ تمامَ الإدراكِ . وبوعيٍّ . مدى حرصِ وإصرارِ الإمامِ ابنِ باديس رائدِ النُّهضةِ الإصلاحيةِ والتَّجديدِ، على الاهتمامِ باللُّغةِ العربيَّةِ، لغةٍ للتَّعليمِ والتَّعلُّمِ، ومن خلالِ حفظِ القرآنِ الكريمِ وتلاوتهِ، قصدَ الحفاظِ على الأُمَّةِ وكيانها، وبالتالي حفظَ دينها الَّذي هو رأسُ الكليَّاتِ الخمسِ، ومقاصدِ الشَّريعةِ الضَّرويةِ . حتَّى صار مدلولُ (العربيِّ) هو (المسلمُ) تماماً .

¹ - عمر عبيد حسنة . الاجتهاد للتَّجديد سبيل الوراثة الحضارية (ط1، لبنان: المكتب الإسلامي، 1419هـ/1998م) ص89.

ثامنا . تربية وتعليم الناشئة:

لم يكتفِ ابنُ باديس بتعليم الكبارِ في المساجدِ فحسب، بل كان يهتمُّ أيضاً بالناشئةِ الصَّغارِ، وعن ذلك يقول: " فلَمَّا يَسَّرَ اللهُ لي الإنتصابَ للتَّعليمِ سنة 1913م، جعلتُ من جُملةِ دروسي، تعليمَ صغارِ الكتاتيبِ القرآنيَّةِ، بعد خُروجهم منها في آخرِ الصَّبِيحَةِ وآخرِ العِشِيَّةِ ، فكان ذلك أولَ عهدِ النَّاسِ بتعليمِ الصَّغارِ في قسنطينة "1.

فلقد كان يُؤمن بأنَّ بناءَ الإنسانِ، رغم صُعبَةِ المَهْمَةِ أجدى وأنفعُ للأُمَّةِ من تأليفِ الكُتُبِ. وهو القائل: " شَغَلْنَا بتأليفِ الرِّجالِ عن تأليفِ الكُتُبِ "2، وأنَّ غرَسَ الأفكارِ البِنَاءِ في نفوسِ النَّاشئةِ هو إيقاظُ لها، وإيقاظُ لسراجٍ يُنيرُ دُروبَ الدُّجَى للسَّالِكِينَ.

وهذا المقصدُ صاغه الشَّيخُ مُحَمَّدُ البَشِيرُ الإبراهيميُّ بقوله: " كانت الخُطَّةُ الَّتِي اتَّفَقْنَا عليها أنا وابنُ باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة في تربية النَّشءِ، هي ألاَّ نتوسَّعَ له في العلمِ، وإِنَّمَا نُرِيهِ على فكرةٍ صحيحةٍ، ولو معَ علمٍ قليلٍ، فتمتَّ لنا هذه التَّجربةُ في الجيشِ الَّذِي أَعَدَدْنَاهُ مِنْ تلامذَتِنَا "3.

تاسعا . التَّعليمُ والإسلامُ الذاتيُّ:

يرى الإمامُ ابنُ باديس بقوةِ بصيرته الثَّاقِبَةِ ومنهجِهِ المقاصديِّ السَّديدِ، أنَّ التَّعليمَ هو السَّبِيلُ الوَحيدُ للوصولِ إلى الإسلامِ الذاتيِّ . كما يُسمِّيهِ . القائم على فهمِ قواعدِ الإسلامِ، وإدراكِ محاسنِهِ، والمبنيِّ على الفكرِ والنَّظَرِ، والمحبةِ العَقَلِيَّةِ والقَلْبِيَّةِ لهذا الدِّينِ، فيقولُ: "إِذَا ! فنحنُ . المسلمِينَ . مُطالبونَ بأنْ نكونَ مسلمينَ، إسلامًا ذاتيًا. فبماذا نتوصَّلُ إلى هذا الواجبِ المفروضِ؟ لذلك سبيلٌ واحدٌ، هو التَّعليمُ... "4.

¹- عمار بن مزوز. عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح. مرجع سابق. ص185.

²- حسن عبد الرحمان سلوادي. عبد الحميد بن باديس مُفسَّرًا. (لا. ط، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م) ص63.

³- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر. مرجع سابق، ص177.

⁴- عبد الحميد بن باديس. الشهاب. مج14. (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1421هـ/2001م)، ص121.

المطلب الثاني

فقه المقاصد في مجال الدعوة عند ابن باديس

لقد اعتمد ابن باديس في دعوته الإصلاحية على هدايات القرآن الكريم ومقاصده، وفي بيانه لماهية الدعوة يقول: "... فَمِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ دَرُوسُ الْعُلُومِ كُلِّهَا، مِمَّا يُفَعِّلُهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَيُعَرِّفُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ وَآثَارِ قُدْرَتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ. فَالْفَقِيهُ الَّذِي يُبَيِّنُ حُكْمَ اللَّهِ وَحِكْمَتَهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ..."¹.

وفي معرض بيانه لدعوة جمعية العلماء الجزائريين، والذي ألقاه بقسنطينة بالجامع الأخضر إثر صلاة الجمعة: 04 ربيع الأول 1356 هـ ذكر أن الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به، ذلك لأنه. كما قال: " يفرض العدل فرضاً تاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز. يدعو إلى الإحسان العام، يُحرِّم الظلم بجميع وجوهه... يُمجِّد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير، ينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه..."².

وعند التعمُّق في أبعاد هذا الكلام، نجد ملامح الفقه المقاصدي في ضرورة رعاية: الدين والنفس والعرض والعقل ودرء كل ما يعطلُّ وظيفته في الوجود من ختل وإكراه، أو غلو وتطرف وجهل... ثم يُردف بالقول مبيناً مقصد المال وأهميته في التشريع، وما شرع لحفظه من أحكام، تدرج تحت المقاصد الحاجية، والمكملة لما هو ضروري، فيقول: " شرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال، وشرع مثل: القراض والمزارعة والمغارسة، مما يُظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال"³.

¹- الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ط1)، الجزائر: دار البعث للطباعة والنشر، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية. 1402/هـ 1982م) ص 61.

²- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ج 5 (ط1)، الجزائر: دار البعث للطباعة والنشر، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية. 1412/هـ 1991م) ص 153.

³- المرجع نفسه، ج 5، ص 154.

وفي معرض رده على الطرقية المبتدعين أثناء عرض دعوة جمعية العلماء، وتلاوته لنفس البيان، يقول: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، ومبناها كلها على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هناك من استغلال. ومن تجميد للعقول، وإماتة للهمم وقتل للشعور، وغير ذلك من الشرور."¹

وهنا نستطيع أن نشير إلى بعض المنطلقات المقاصدية في مجال الدعوة عند ابن باديس من بينها:

أولا . الحرية هي الحياة:

نجد الإمام يؤكد على مقصد (الحرية)، والتي يعتبرها عين الحياة، ولا يتم الوجود الإنساني إلا بها، فيقول: "حق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية، المتعدى عليه في شيء من حريته، المتعدى عليه في شيء من حياته"².

ويُشبه حاجة الإنسان للحرية كي يعيش، كحاجة النبات للمنتب والهواء كي ينمو، فيقول: "لا ينمو النبات ويزهر إلا إذا كان في نطاق واسع من الفضاء والهواء والمنتب، يجد فيه الحرية للنمو والإزدهار، وبقدر ما يضيق نطاقه يكون ما يصيبه من اليأس والدُّبُول. هكذا الإنسان تنمو مداركه وتتحمّد، وتقوى إرادته وتضعف، وتحسن أعماله وتقبّح، بقدر ما يكون له من الحرية الصحيحة في الحياة"³. ثم يربط ربطاً وثيقاً بين الحرية والعقل، ويجعل من أعظم أسباب الجهل الاستبداد والاستعباد، فيقول: "أمّا الشعوب المستعبدة، فإنّ طول استعبادها يُفسد عليها فطرتها، ويُميت شعورها، حتّى تجهل ما لا يجهله أحد، وتزهد فيما لا يزهّد فيه مخلوق..."⁴.

بل إنّ الحرية هي المناخ الذي يعمل فيه العقل، ويُبرز إبداعاته، وتتجلى فيه نطق مداركه، وتتفجر ينابيع اختراعاته وابتكاراته، يقول الإمام ابن باديس: "بينما كُتِب المَلَل . كما ذكرنا . إذا

¹ - المرجع السابق. ص 155.

² - المرجع نفسه. ص 11.

³ - المرجع نفسه. ص 182.

⁴ - المرجع نفسه. ص 183.

أتى القرآنُ كتاباً، هُدى لجميع الخلقِ بلسانِ عربيٍّ، يُخاطبُ العقلَ ويدعو إلى الفطرة، يقارعُ بالحجةِ ويدعو إلى التفكيرِ، يُحارب الجمودَ ويحثُّ على الاستدلال، يُقرِّرُ الحرِّيَّةَ بأنواعها...¹.

والدَّارسون حياةَ الإمام ابن باديس، ضبطوا لنا الجبهاتِ التي حاربَ فيها دفاعاً عن المحافظةِ على مقوماتِ الشَّخصيَّةِ الجزائريَّةِ، وتمثَّلَ فيما يلي:

- 1/ الاستعمار الفرنسي. 2/ رجال التبشير المسيحي. 3/ رجال الطُّرق الصُّوفيَّة المنحرفين.
- 4/ دعاة التَّجنيس والاندماج في فرنسا، ودعاة الفِرْقة واللائكيَّة.

وفي مقالٍ له يُبيِّنُ فيه معالمَ دعوته ذاتِ المسلكِ المقاصديِّ. ولو كان ذلك يُفهم من المعاني لا من المباني. يقول: " رأينا واجباً علينا أن نقوم بالدعوة العامَّة إلى الإسلام الخالص، والعلم الصَّحيح، إلى الكتابِ والسنة، وهدي صالح سلفِ الأُمَّة، وطرح البدع والضَّلالات، ومفاسدِ العادات "2.

ثانياً. الدَّعوة قوامها العلم والعقل:

وفي محلِّ شرحه و تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي... الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف: 108.

يُبيِّنُ أنَّ الدَّعوة قوامها العلم والعقل، وأساسها الحجَّة والبرهان، فيقول:

"... وكانت دعوته المبنيَّة على الحجَّة والبرهان، مشتملة على الحقِّ والبرهان، فكان يستشهد بالعقل ويعتضد بالعلم، ويستنصر بالوجدان، ويحتجُّ بأيام الله في الأمم الخالية، وما استفاض من أخبارها، وبقي من آثارها من أنباء الأولين، وما يمرُّ النَّاس عليه مُصبحين وبالليل "3.

¹ المرجع السابق. ص 60.

² تركي رابع، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر. مرجع سابق، ص 248.

³ الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. مرجع سابق، ص 60.

ثم يؤكد على أن حفظ العقول والأنفس مما قصد الله تعالى في شرعه لعباده، وهذا أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾. النحل: 125. إذ يقول: "شرع الله لعباده بما أنزل من كتابه، وما كان من بيان رسوله، ما فيه استنارة عقولهم وزكاء نفوسهم، واستقامة أعمالهم"¹.

ثالثا. حفظ النفوس بحفظ النسل والفرج وعدم العدوان:

وتحت هذا العنوان، يؤكد ذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ... إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾. الإسراء: 31/33. قائلاً:

"هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلاً قطعياً وكنيةً عامّةً في الدين، وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة..."². ثم ذكر هذه الوجوه الثلاثة: حفظ النسل، حفظ الفرج، وعدم العدوان. واستفاض في شرحها.

ثمّ ها هو مجدداً يربط ربطاً وثيقاً دقيقاً، ربط من يتجاوز أسوار الألفاظ والمباني، إلى أسرار المقاصد والمعاني. فيربط بدقة بين الآيات السابقة والآية اللاحقة: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾. الإسراء: 34.

فيقول كلاماً جميلاً المبني جليل المعنى، مُقرِّناً بين حفظ الأموال وحفظ النفوس:

"مال المرء قطعة من بدنه، ويُدافع عنه كما يُدافع عن نفسه، وبه قوام أعماله في حياته، فالأموال مقرونة بالنفوس كما في الاعتبار، فُقرنت في النظم آية حفظ الأموال بآيات حفظ النفوس..."³.

وفي موضعٍ آخر مُبدياً رعاية الإسلام لمقاصده الضرورية، مُنقّباً عن ذلك في آيات الكتاب العزيز، يقول: "قد تضمّنت هذه الآيات (يقصد آيات سورة الإسراء: 31، وما بعدها) على قلتها

¹- المرجع السابق، ص 66.

²- المرجع نفسه، ص 125.

³- المرجع نفسه، ص 131.

الأصول التي عليها تتوقف حياة النوع البشري، وسعادته من حفظ النفوس والعقول (ولا تَقْفُ) الآية. والأنساب والأموال والحقوق (وأوفوا بالعهد، وأوفوا بالكيل) والأعراض (ولا تَقْرُبُوا الرِّزَا. ولا تَقْفُ) والدين الذي هو عمله ذلك كله، وفي حفظه حفظاً لجميعها¹.

رابعاً. مقصد المكلف تبع لمقصد الشارع:

ثم هو في دعوته وإصلاحه يستند دائماً إلى الشرع، ويرد اعتبار مقاصد المكلف إلى عدم تفويتها أو تعارضها مع مقاصد الشارع التي هي الأصل للأولى، فيقول: "لما ثبت شرعاً أنّ الدعاء عبادة، فمن دعا شيئاً فقد عبده، ولو كان هو لا يُسمي دعاءه عبادة جهلاً منه أو عناداً، لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره، لا بتسمية المكلف واعتباره"².

خامساً. دعوته بين المرونة والثبات:

يتجلى لنا بُعد المقاصدي في مجال دعوته، من خلال أتباعه لسياسة مرنة بوجه عام، حتى يتمكن من الوصول إلى أهدافه البعيدة، فيقدم ما يدعو الظرف إلى تقديمه، ويؤخر ما يفرض الحال تأخيرها، بحكمة الحكماء لا بطيش السفهاء، وبروية العقلاء لا بتهور الحمقى والمغفلين، من دون أن يضحى بمبادئه، فيوضح ذلك بقوله في أحد شعاراته المشهورة: "تستطيع الظروف تكييفنا، ولكنّها لن تستطيع أن تقهرنا"³.

أمّا مبادئه الأساسية التي يؤمن بها، وأهدافه الرئيسية التي يدعو إليها ويجاهد من أجلها، فهو لا يتزحزح عنها قدر أمثلة، فيصرخ في وجه من يريد أن يقف في طريق تحقيق مبادئه قائلاً: "من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها، ويؤمن بها الصادقون، فقد حاول عبثاً قلب الحقائق، ونحن لذلك لا نتزحزح عن تلك الفكرة قيد شعرة، مهما طغى سيل الكوارث، على أمة لها ما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها، الكامنة كموثّق النار في الكهرباء"⁴.

¹- المرجع السابق. ص 149.

²- المرجع نفسه. ص 158.

³- تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر. مرجع سابق، ص 251.

⁴- المرجع نفسه. ص 252.

سادسا . المقاصدُ محورُ دعوتِهِ:

وما المقصدُ من الدَّعوة . في نظره . وفي نظر أصحاب الحِجى إلا حفظ الدِّين، من خلال إحقاق الحقِّ، وإبطال ضده، بإظهار البراهين لإقناع المخالف. فهذا هو الإمام ابن باديس يقول في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ...﴾. المائدة: 16/15. وتحت عنوان (أدبٌ واقتداءً): "على الدَّاعي إلى الله والمناظرِ في العلم أن يقصدَ إحقاقَ الحقِّ، وإبطالَ الباطلِ، وإقناعَ الخصمِ بالحقِّ وجلبه إليه، فيقتصرُ من كلِّ حديثه على كلِّ ما يحصلُ له ذلك، ويتجنبُ ذكرَ العيوبِ والمثالبِ . ولو كانت هُنالكِ عيوبٌ ومثالبٌ . اقتداءً بهذا الأدبِ القرآنيِّ النبويِّ في التَّجاوزِ ممَّا في القومِ عن كثيرٍ . وفي ذكرِ العيوبِ والمثالبِ خروجٌ عن القصدِ، وبعدٌ عن الأدبِ وتعدُّ على الخصمِ، وإبعادٌ له وتنفيرٌ عن الاستمتاعِ والقَبولِ، وهما المقصودُ من الدَّعوة والمناظرة"¹.

وعندما يعرض لتفسيره لقوله تعالى: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ...﴾. النحل: 125. وتحت عنوان: (كيف تكون الدعوة إلى الله والدِّفاع عنها)؟؟ يقول: " شرعَ اللهُ لعباده بما أنزلَ من كتابه، وما كان من بيانِ رسوله ما فيه استنارَةُ عقولهم، وزكاءُ نفوسهم واستقامةُ أعمالهم، وسمَاءُ سبيلًا ليلتزموهُ في جميعِ مراحلِ سيرهم في هذه الحياة، ليُفضي بهم للعناية المقصودة، وهي السَّعادةُ الأبديةُ في الحياة الأخرى."²

سابعا . نقدُهُ للخُطابِ المَسجديِّ:

يوجِّهُ نقدَهُ للخُطَبِ المَعقَّدةِ !! واليَّ لا ينتبه فيها الخُطباءُ إلى ضرورةِ مراعاةِ أحوالِ الحاضرِ وظروفِ السَّامعِ، يعتبرها تعطيلاً للوعظ والإرشاد، الذي هو ركن عظيم لخدمة ضرورة الدِّين وحفظها، فيقول: "...أكثرُ الخُطباءِ في الجُمعاتِ اليَّومَ في قُطرنَا يخطُبون النَّاسَ بِخُطَبِ مُعقَّدةٍ مُسجَّعةٍ طويلةٍ، من مُخلَّفاتِ الماضي، لا يُراعى فيها شيءٌ من أحوالِ الحاضرِ وأمراضِ السَّامعينَ، تُلقَى بترُّمٍ وتلحينٍ أو غمَّمةٍ ومُطِيطٍ، ثمَّ كثيرا ما تُختمُ بالأحاديثِ المنكراتِ

¹ - عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، مج 1، ج 1، ص 166.

² - المرجع نفسه، مج 1، ج 1، ص 181.

أو الموضوعات. هذه حالة بدعيّة في شعيرة من الشعائر الإسلاميّة، سدّ بها أهلها باباً عظيماً من الخير فتحه الإسلام، وعطلوا بها الوعظ والإرشاد، وهو ركنٌ عظيمٌ من أركان الإسلام".¹

ثامناً. الإسلام بين الذاتي والوراثي:

وفي موطن آخر يعقد مقارنةً بين الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي، وأيهما ينهض بالأمم؟ إذ يؤكّد في دعوته على الاهتمام بالعقل، ومدارك الفهم، ومسالك النظر والقراءة في الكتابين: كتاب الله المسطور (القرآن)، وكتابه المنظور (الكون)، فيقول: "...لكنّ هذا الإسلام الوراثي لا يُمكن أن ينهض بالأمم، لأنّ الأمم لا تنهض إلاّ بعد تنبّه أفكارها، وتفتح أنظارها، والإسلام الوراثي مبنيٌّ على الجمود والتقليد، فلا فكر فيه ولا نظر. أمّا الإسلام الذاتي، فهو إسلامٌ من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله". إلى أن يقول: "هذا الإسلام الذاتي هو الذي أمرنا الله به في مثل قوله: (قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ مِثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) فبال تفكير في آيات الله السّمعية وآياته الكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر، تنهض الأمم فتستثمر ما في السّموات وما في الأرض، وتُشيدُ صُروحَ المدينة والعمران".²

ويعضّد هذا ما قاله محمّد عمارة³ في معرض نقده لتيار الجمود والتقليد لترائنا الفكري:
"...ذلك التيار الذي ينظر فقط إلى الخلف! ويقف عند ظواهر النصوص، مُغفلاً المقاصد التي تغياها الشارح من وراء هذه النصوص".⁴

¹ - المرجع السابق، مج1، ج1، ص188. 189.

² - عبد الحميد بن باديس. الشهاب. مج14 (ط1، بيروت: دار الغربي الإسلامي. 1421هـ/2001م) ص120 - 121.

³ - من مواليد: 1931م، مفكر إسلامي، وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف. نال الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية: 1965م، والماجستير فلسفة إسلامية: 1970م، والدكتوراه في نفس التخصص: 1975م. (ينظر: الموسوعة الحرة. ويكيبيديا).

⁴ - محمد عمارة. مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية (ط1، مصر: مكتبة الشروق الدولية، 1423هـ/2003م)

المطلب الثالث

فقه المقاصد في مجال الفتوى ومراعاة الحال وظروف الزمان والمكان

عند ابن باديس

عند انتصاب الإمام ابن باديس للتدريس، بدأ بخوض مجال الفتوى، ولكنَّ هذا الأمر لم يتوسَّع إلا بعد قيام الصَّحافة الإصلاحية، فكانت الأسئلة الفقهية تردُّ عليه من كافة عمالات القطر الجزائري، فيتولَّى الإجابة عليها من خلال صفحات الشَّهاب، وجريدة البصائر، وكانت تدور هذه الأسئلة حول العقائد والعبادات والمعاملات. حيث اتَّخذ من الإفتاء طريقًا من طُرُق تبليغ أحكام الشريعة، وتبيين المشكل منها، ومجالاً لنشر العلم، وإحياء السنن وإماتة البدع والمحدثات، وإرشاد النَّاس والتَّنبيه على المخاطر والتَّحذير من الانحرافات والضَّلالات، والوقوف أمام تحريفات الغالين وانتحال المبطلين وتأويلات الجاهلين...¹

ولم تكن إجاباته مقتصرة على أسئلة المستفتين، بل إنَّه كان يُعلِّق على فتاوى العلماء داخل وخارج القطر الجزائري، إما مُثنيًا عليها أو مُوضِّحًا ومُفصِّلًا ما فيها من إجمال وإهمام، أو مُحدِّدًا ممَّا فيها من خطأ أو ضلال².

ومعلوم أنَّ الفقيه لا بدَّ أن تتوفر فيه مواصفات وشروط، منها: أن يكون مُلمًّا بآيات الأحكام عالمًا بها، وأن يكون عالمًا بأحاديث الأحكام، وسالكًا لناحية اللُّغة العربية، واسع الإطِّلاع على آراء الآخرين من أهل الفقه والعلم والرأي، وأن يكون مُلمًّا بفتاوى الصَّحابة والتَّابعين. والباحث في علم ابن باديس يجدُّ أنَّه قد توافرت فيه هذه الشروط³. ولقد كان ابن باديس مُستكملًا لأدوات النَّظر والاجتهاد، مُتبحِّرًا في الأصلين القرآن الكريم والسنة، مُحيطًا بمقاصد الشريعة وأسرار التشريع، عارفًا بعلوم اللسان، عالمًا بقضايا المجتمع

¹ عبد الحميد بيرم. أصول فتاوى الشيخ عبد الحميد بن باديس ومميزاتها (مجلة: الموافقات. الجزائر: المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد: 6. السنة السادسة: 1418هـ/1997م. 1998م) ص493.

² المرجع نفسه. ص494.

³ محمد مقبول حسين. فقه الإمام عبد الحميد بن باديس (مجلة: الموافقات. الجزائر: المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد: 6. السنة السادسة: 1418هـ/1997م. 1998م) ص484.

ومشكلاته، وآثاره التي خلفها خير شاهدٍ على ذلك¹ .
وسأوضح بعض المقاربات المقاصديّة عند ابن باديس في مجال الفتوى والاجتهاد في النقاط
التّالية :

أولا . أصولُ فتاوي الإمام ابن باديس:

وبالرجوع إلى مصادر فتاويه، نجد أن الشّيخ كان يعتمد بالحلّ الأوّل على الكتاب والسنة،
مُعصداً ذلك بأراء المجتهدين المحققين، ومن هؤلاء الإمام الجويني من الشّافعية، وشيخ الإسلام
ابن تيمية من الحنابلة، والقاضي عياض من المالكية، وغيرهم...²، ولا يخفى على الدّارس أنّ من
هؤلاء من كان له باعٌ في مقاصد الشريعة الإسلاميّة. وكثيرا ما كان يعتمد على كتاب الموافقات
في تقرير كثيرٍ من المسائل، ويُشيدُ به وبصاحبه أبي إسحاق الشّاطبي³ . وأما منهجه في الفتوى
فقد اتّصف بالوسطية والإنصاف في العلم، والنصح والبيان والوضوح والجرأة والصراحة في الحقّ،
وإلى جانب كلّ ذلك: مراعاة الأحوال في الفتوى.

وفي هذا يقول الإمام في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾
الإسراء:36. "...فكفى بالمرء كذبا أن يُحدّث بكلّ ما سمع، كما جاء في الصّحيح، بل علينا
أن نعرضه على محكّ الفكر، فإن صرنا منه على علمٍ فُناهُ، مُراعين فيه آداب القول الشرعيّة،
ومقتضيات الرّمان والمكان والحال"⁴.

فهي فتوى تنطلق من الواقع، آخذة في الاعتبار مقاصد الشريعة. وهذه هي الواقعية في
نظرها المتكاملة للواقع الإنسانيّ، نزوع متصاعداً إلى التّطابق مع النّمودج المرجعيّ المتّسق مع
فطرة الوجود وفطرة الإنسان، كما تعرّضه نصوص الوحي وتخطّط له، وعناية فائقة بالواقع
الانتقاليّ المعاش، في مرونة محسوبة.⁵

¹ عبد الحميد بيرم. أصول فتاوى الشيخ عبد الحميد بن باديس ومميزاتها. المرجع السابق. ص494.

² المرجع نفسه. ص506.

³ المرجع نفسه. ص515.

⁴ عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، مج1، ج1، ص270.

⁵ الطيب برغوث. منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية (ط1). الولايات المتحدة

الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1416هـ/1996م) ص148.

اعتمد الإمام ابن باديس في فتاويه على نصوص الكتاب وما صحَّ من الأحاديث والإجماع وعمل السلف الصالح والقياس، وإلى جانب هذه الأصول، فقد كان الشيخ ابن باديس يرجع إلى مقاصد الشارح المستفادة من نصوص الكتاب والسنة فيما ساقه من أدلة في فتاويه أو تعليقاته ومناقشاته¹.

وهو في فتاويه . كذلك . كأنه يسلك مسالك العلماء في اجتهادهم عند ترتيب وإنشاء أحكام جديدة موافقة لمقاصد الشريعة بدافع الحاجة، ومعنى هذا المسلك أن الفقهاء اجتهدوا في وضع بعض الأحكام التي لم يدل عليها دليل شرعي، وإنما كان رائدهم في ذلك الحاجة الشرعية حفظاً لحقوق الناس، أو تخفيفاً عليهم، أو صيانةً لدينهم².

كما أنه موافق في كل ذلك لمدرسة الأثر المالكية، الملتزمة بالكتاب والسنة مرجعاً أساسياً للفقهاء، مُصطبغاً بصبغة علماء هذه المدرسة في فقه النصوص، المبني على تعليل الأحكام واعتماد المصلحة مقصداً من مقاصد الشارح الحكيم، تُفهم على ضوءها أوامر ونواهي³.

والدَّرس لفتاوى ابن باديس بتمعن وعمق، سيخلص إلى أن الإمام راعى المقاصد وطبَّعها في فتاويه، وأنزلها من علياء التفقه والتنظير، إلى مسالك الواقع والتنزيل. وهذا الأمر ملحوظ بوضوح، ولا يكلف الباحث فيه عناء، فهو بعدما يعرف الاجتهاد، يقول: "وأهلُه هو المتبحر في علوم الكتاب والسنة، ذو الإدراك الواسع لمقاصد الشريعة والفهم الصحيح للكلام العربي"⁴.

ثانياً. اعتبار العرف في فتاويه:

من تمام واقعية فتوى الإمام ابن باديس اعتماده على العرف، كأصل من أصول التشريع، بشرط عدم التصادم مع نص من كتاب أو سنة أو إجماع، فهو من باب التوسعة ورفع الحرج

¹ - عبد الحميد بيرم. أصول فتاوى الشيخ عبد الحميد بن باديس ومميزاتها. المرجع السابق. ص 520.

² - نبيل موفق. علاقة المقاصد الحاجية بالأدلة الإجتهدية (ط1، الجزائر: مطبعة مزوار. 2016م) ص 28.

³ - محمد عيسى. خصائص الفقه الباديسي ومعالم المدرسة الفقهية الباديسية في ضوء آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (مجلة: الموافقات. الجزائر: المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد: 6. السنة السادسة: 1418هـ/1997م. 1998م) ص 549.

⁴ - عبد الحميد بن باديس. مبادئ الأصول. تحقيق: عمار الطالبي (ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب. 1988م) ص 51.

عن المكلفين، الذي قصدته الشريعة، إلا أنّ مجال العرف لا يتعدى المعاملات مثل القياس. لذلك لما استدلل . أستاذه . الإمام الطاهر بن عاشور في مسألة القراءة على الجنائز بعرف الناس، وبأقوال بعض أئمة المذهب في ذلك. كان رد الإمام ابن باديس على ذلك، بتقسيم عمل الناس إلى قسمين:

معاملات: وفي هذا القسم أعراف الناس وعوائدهم معتبرة، من باب التوسعة عليهم ورفع الحرج عنهم.

عبادات: أمّا في هذا القسم، فلا اعتبار لعمل أحد، ولا لعرف جماعة فيه، إلا بشهادة نصوص الكتاب والسنة، والأصل فيه التوقف إلا بدليل، وإلا عدّ بدعة. وقراءة القرآن من العبادات.

ثالثاً . استدلاله في فتاويه بمقاصد الشارع:

كان الإمام ابن باديس يرجع في فتاويه إلى مقاصد الشارع المستفادة من نصوص الكتاب والسنة، فها هو في معرض رده وتحذيره لقوم زعموا أنّ الصلاة على النبي . صلى الله عليه وسلم . خير لعامة الناس من تلاوة القرآن، يُقرّر أنّ هذا الزعم مخالف لمقاصد الشارع من تلاوة القرآن الكريم، فيقول: "...وهذا الرأي المتقدّم في تفضيل الصلاة على التلاوة مخالف تمام المخالفة لما نقلناه في نتيجة الاستدلال عن أئمة السلف والخلف: من أنّ قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار، ولم يُفرّقوا في ذلك بين عامة وخاصّة، ومخالف كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن... إلى أن يقول: "فمقصود الشارع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم، وذلك الرأي يصرّفهم عنه"¹.

ومعلوم أنّ الإمام ابن باديس مثلما وقف للعدو الخارجي المتمثل في المستدمر الفرنسي، وقف . أيضاً . لأهمّ أدواته في الدّاخل، ألا وهو أهل البدع، من أصحاب الطرق المزيّفة،

¹ الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. مرجع سابق. ص 43 و 44.

الرّاعمين انتسابهم للصّوفية المعتدلة، والمدّعين لطريقة الرّهد، كاشفاً . ومنّ معه من رجال الإصلاح . كذبهم وزيفهم، مجلياً هدفهم، ألا وهو سلْب العقل، ومن ثمة تشويه الدّين وتزويره، وتحريف رسالة السّماء، واستغفال النّفوس واستغلالها في تدمير ذاتها. وهي كما لا يخفى على كلّ ذي لبّ من أعظم مقاصد هذا التّشريع الصّوريّة. والتي لا يتصوّر وجود حياة إنسانيّة دونها.

رابعاً . موقفه من تجزئة الأحكام الشرعيّة:

وممّا يؤكّد بعهده المقاصديّ، رفضه لتجزئة الأحكام الشرعيّة، إذ الدّين الإسلاميّ عنده متكامل لا يتجزأ. ويتجلى هذا في معرض ردّه - ومنّ معه من المشايخ : البشير الإبراهيمي، مبارك الملي، العربي التّبسي، الأمين العموديّ - عن تساؤل رئيس لجنة البحث البرلمانية، قائلاً - أيّ ابن باديس-: "سألنا ماذا تقولون لو صدر الأمر بمنع تعدد الزوجات خاصّة، فأجبتُه بأنّ الشّريعة كلّ لا يجوز للمسلم تجزئته، فتقبل كلّها أو تردّها كلّها ! " ثمّ قال: " سألنا عن جبر البكر، فأجبتُه بأنّ هذا من الفروع الخِلافية التي يسوغ للمسلمين أن يتوسّموا فيها باتّباع من شاءوا من أئمّتهم".¹

خامساً . نصحه للمتصدّي للفتوى:

لقد نصّح ابن باديس كلّ من يتصدّى للفتوى من العلماء بقوله: "...وممّا ينبغي لأهل العلم أيضاً . إذا أفتوا أو أرشدوا . أن يذكروا أدلّة القرآن والسّنّة لفتاويهم ومواعظهم، ليقرّبوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته، ويعرّفوهم منزلته ويجعلوه منهم دائماً على ذكرٍ ويُنيلوهم العلم والحكمة من قريب".²

¹- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. مرجع سابق. ج.5، ص330.

²- الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. المرجع السابق. ص142.

سادسا . استناد المفتي إلى ما يُفيدُ الظنَّ

وفي موضعٍ آخرٍ يُبيِّنُ لنا الإمامُ مسلكَهُ المقاصديَّ، عندما يعتبر أنَّ المجتهدَ إذا أفتى مُستندًا إلى ما يفيدُ الظنَّ من أخبارِ الآحادِ أو الأقيسةِ أو النصوصِ الأخرى الظنيَّةِ الدَّلالة، أنَّه متَّبِعٌ للعلم، ويستدلُّ على ذلك من ثلاثةِ وجوه، أوَّلُها . وسنكتفي به . فيقول : " أنَّ كلَّ دليلٍ يكونُ ظنيًّا بمفرده، يصيرُ يقينيًّا إذا عُرضَ على كلياتِ الشَّرعِ ومقاصده، وشهدتْ له بالصَّوابِ، وهذا هو شأنُ المجتهدينَ في الأدلَّةِ الفرديَّةِ " ¹.

وهكذا نراهُ يكشفُ عن مسلكِهِ المقاصديِّ بجلاء في كلِّ مرَّةٍ سنحتْ فيها فرصةُ البَيانِ.

سابعا . فتوى تحريم التَّجنيسِ:

أصدر الإمام ابن باديس فتواه الشهيرة بتكفير مَنْ يتجنَّسُ بالجنسيَّةِ الفرنسيةِ، مُتخلِّيًا عن أحكامِ الشَّرعيةِ، وقد صادقتْ عليها لجنةُ الإفتاءِ بالجمعية، ونُشرت في جريدةِ (البصائر)، وقد جاء فيها: " التَّجنُّسُ بجنسيةٍ غيرِ إسلاميَّةٍ يقتضي رفضَ أحكامِ الشَّرعيةِ، ومَنْ رفضَ حُكمًا واحدًا مِنْ أحكامِ الإسلامِ، عُدَّ مُرتدًّا بالإجماع، فالمتجنَّسُ مُرتدُّ بالإجماع، والمتجنَّسُ بحكم القانونِ الفرنسيِّ يجرى تجنُّسه على نسله، فيكونُ قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام... " ².

وقد أحدثتْ هذه الفتوى صدًى كبيرًا داخلَ القطرِ الجزائريِّ وخارجَهُ، فكانت بمثابة المعولِ الذي حطَّم كلَّ آمالِ المتجنِّسينَ، وكذلك سياسةَ الاستعمار في العملِ على حَمَلِ الجزائريينَ على التَّجنُّسِ بالجنسيَّةِ الفرنسيَّةِ، والتَّخلِّي عن أحدِ أهمِّ مقوماتِ الشَّخصيةِ الجزائريَّةِ وهو الإسلام ³.

¹- المرجع السابق.ص142.

²- عبد الحميد بن باديس.جريدة البصائر ،السنة الثالثة، العدد:90 . 140 . [1356 . 1357 هـ/1937 .

1938م]، (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.1426 هـ/2005م)ص46.

³- تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر.مرجع سابق.ص98.

لقد كان لهذه الفتوى دورٌ عظيمٌ، وأثرٌ بليغٌ في حماية الذات والهوية الجزائرية المسلمة، حيثُ أُنشئت في حينها أمضى من أسلحة جيش كامل العتاد، وما كان لها من الأثر البالغ في حماية الذات والهوية، والاعتزاز بالثقافة العربية والإسلامية، وربط الشعب بالقيم الإسلامية في الجزائر، في مرحلة المواجهة والتدوير.¹

فبالنظر إلى عمق هذه الفتوى ومآلاتها، ومراعاتها للحال، وظروف الزمان والمكان، ولأنها محكمةٌ بجملةٍ من الشرائط، فلا يمكن. حينئذٍ. النظر إليها من خارج ظروفها، أو وضعها خارج إطارها، وإغفال مقاصدها؛ فقد حققت المقصود، وأدت دورها بحكمة، وأوصلت إلى المبتغى، بأفضل أسلوب، وبأحكم تخطيط، وأوضح تصوّر للمقاصد من ورائها. فيا له من نظرٍ و فكرٍ مقاصديٍّ بديعٍ !!

¹ عمر عبيد حسنة، الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، مرجع سابق. ص92.

خلاصة المبحث الأول

تناولت في هذا المبحث الأول: اهتمام الإمام ابن باديسَ بفقهِ المقاصدِ، وذلك من خلال ثلاثة مطالب، فبالنسبة للأول منها فقد تناولتُ من خلاله فقهَ مقاصدِ الشريعة عند ابن باديس في مجالِ التدريس والتَّعليم، أمَّا بالنسبة للمطلبِ الثاني منها، فقد خصَّصتُهُ لبيانِ اهتمامه بفقهِ المقاصدِ في مجالِ الدَّعوة. وأمَّا المطلبُ الثالثُ والأخيرُ، فقد بيَّنتُ فيه اهتمامه بفقهِ المقاصدِ في مجالِ الفتوى، ومُراعاةِ الحالِ، وظروفِ الزَّمانِ والمكانِ.

المبحث الثاني

المنهج المقاصدي عند الإمام ابن باديس (فهما وتنزيلا)

وبيان ذلك من خلال ثلاثة مطالب، كالآتي:

المطلب الأول: اعتبار المصلحة والمفسدة عند الإمام ابن باديس.

المطلب الثاني: اعتبار فقه المآلات وفقه الأولويات عند الإمام

ابن باديس.

المطلب الثالث: النظر الكلي في معالجة المشكلات عند الإمام

ابن باديس

المطلب الأول

اعتبار المصلحة والمفسدة عند الإمام ابن باديس

لقد جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق مصالح العباد، ولرفع الحرج ودفع الضرر عن الناس، ولكي تُصلح شؤونهم في العاجل والآجل، فأحلت لهم الطيبات، وحرمت عليهم ما كان خبيثاً، ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

وهذا ما نلمسه نظرياً وواقعياً في دعوة ابن باديس الإصلاحية، فلقد أدرك كما أدرك ذلك من قبله من العلماء، أنّ الشريعة الإسلامية مبنيةٌ. فيما شرعته من أحكامٍ. على جلب كلِّ ما فيه من منفعة للإنسان، ودفع كلِّ ما هو مفسدٌ له أو من شأنه أن يُفضي به إلى المفسدة¹.

وبالنظر إلى فقه الإمام، نجد أنّه كان يعتمد على مبدأ سدِّ الدرائع الذي هو فرع النظر إلى مآلات الأفعال، والنظر إلى مآلات الأفعال فرع الاعتداد بالاستصلاح، والاعتداد بالاستصلاح مبنيٌّ أساساً على مُراعاة جلبِ المصالح ودرءِ المفسدِ التي هي مقصدُ الشارع من التشريع، وغايةُ الأحكام الشرعية². وفيما يلي بيانٌ لأهمِّ معالم ذلك عند الإمام ابن باديس:

أولاً. تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

لم يتوقف فقه الإمام ابن باديس المقاصدي عند استيعابه لكليات المقاصد وجزئياتها، وإنما امتدَّ كذلك إلى إدراك رتبِ المصالح فيما بينها³. ففي حالة التعارض بين مصلحتين

¹- مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده، مرجع سابق، ص59.

²- محمد عيسى. خصائص الفقه الباديسي ومعالم المدرسة الفقهية الباديسية في ضوء آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق. ص551.

³- مسعود فلوسي، البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس. مرجع سابق، ص598.

نجده يُقرّر الآتي: "لِنَجْعَلَ المصلحةَ العامّةَ غايَتنا والمقدّمةَ عندنا، حتّى لا يكون . إن شاء الله .
في مصالحنا الخاصّة ما يصرّفنا أو يشغلنا عنها، راجينَ من الله تعالى أن يُعيننا على ما قصدنا،
وأن يُوفّقنا إلى استعمالِ كلّ مصلحةٍ خاصّةٍ لنا في مصلحةٍ عامّةٍ لنا وإلّاخواننا"¹.

وفي فتوى تحريم التّجنّيس، نلمح عمقَ فقهِه في الموازنة بين المصلحة العامّة والمصلحة الخاصّة، إذ المستفيد من هذا هم أفراد، بينما هذا يؤدّي إلى ضياع المصلحة العامّة للأمة الجزائرية، بضياع مُقوّمات شخصيّتها وعلى رأسها دينها الدّي هو أعظم المصالح التي قصد الشارع حفظها، وقد تقرّر أن مصلحة الدّين أساسٌ للمصالح الأخرى، ومقدّمةٌ عليها، ويجب التّضحية بما سواها في سبيل المحافظة عليها، وإلّغاء ما يعارضها من المصالح الأخرى.²

ومعلوم أنّ المقاصد باعتبار تعلقها بعموم الأمة أو بأفرادها، تنقسم إلى قسمين: مقصدٌ هدفَ فيه الشارع إلى حماية مصلحةٍ وكيّيةٍ تعود إلى عموم الأمة أو جماعةٍ عظيمةٍ منها، مثل حماية الأمة من الاعتداء عليها صوتاً لدينها ومقدّراتها ومثّلها، وحفظها من التّفرّق بسلامة كيانها ليكونَ كياناً قادراً على حفظِ نفسه وردّ الاعتداء عنه، وحفظُ الدّين من الزّوال بتعهّد إحياءِ تعاليمه في الأجيال المتعاقبة. ومصلحةٍ جزئيةٍ خاصّةٍ هي مصلحة الفرد أو الأفراد القليلين في رعاية مصالحهم.³

وهذا التصرّف المقيث من الدّين تجنّسوا دفعَ بالإمام ابن باديس إلى أن يصرّح قائلاً لهم، ومخاطباً إيّاهم: "إنّنا لانستجيزُ السُّكوتَ عنهم، إذا رأينا منهم دعايةً لتوسيع نطاقِ التّجنّس؛

¹- الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. مرجع سابق. ص 221.

²- يوسف حامد العالم. المقاصد العامة للشريعة الإسلامية (ط 2)، المملكة العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي.

1415/هـ 1994م) ص 146.

³- خليفة بابكر الحسن. فلسفة مقاصد التشريع في الفقه الإسلامي. (ط 1. مصر: مكتبة وهبة. 1421/هـ 2000م) ص 25.

إذ في ذلك محاولة إضعاف الإسلام، باختطاف الضعاف من بنيهم، ومجاوزة حدود النظر لأنفسهم، بالإغراء لغيرهم"¹.

ثم يؤكد هذا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ...﴾. النور: 62.

وتحت عنوان: (موازنة وترجيح)، فيقول: "هنالك المصلحة العامة، وهنالك المصلحة الخاصة، ومحال أن تتساوى هذه بتلك. أنظر إلى الذكر الحكيم كيف عبّر عن الأولى بالأمر الجامع، وفي هذا ما فيه من تفخيم، وعبّر عن الثانية ببعض الشأن، وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل. وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الأولى على الثانية، وإثما ما كانت تُعتبر إلا على وجه الرخصة والاستغراق في الاهتمام، والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى"².

ثانيا. مصلحة الوطن قبل كل شيء:

وفي مراعاته للمصلحة نجده يقدم مصلحة الوطن قبل كل شيء، إنه الوعاء الذي حوى هذه الأمة الجزائرية، ونظراً لبعد نظره المقاصدي، هاهو يقرّر فيقول: "وأعلن (الشهاب) من أوّل يومه، . و(المنتقد) من قبله. أنّ الوطن قبل كل شيء، وما كانت هذه اللفظة يومئذ تجري على لسان أحدٍ بمعناها الطبيعي الاجتماعي العام، لجهل أكثر الأمة بمعناها هذا، وعدم الشعور به... وأصبحت كلمة (الوطن) إذا رتت في الآذان حرّكت أوتار القلوب، وهزّت النفوس هزّاً"³.

ثمّ ها هو يُقدّر المفسد، ويُوازن بينها، فيقدم في إزالة الأخطار منها - بحسب ما تقتضيه الظروف -، فيرى أنّ الخطر الداخلي على الدين، لا يقلّ خطورةً على الخطر الخارجي، وأقصدُ

¹ - عبد الرشيد زروقة. جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر: 1913. 1940م. (ط1. لبنان: دار الشهاب. 1420هـ/1999م) ص137.

² - الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. المرجع السابق. ص221.

³ - عبد الحميد بن باديس. مجلة الشهاب، مج14، مرجع سابق، ص8. 9.

بذلك الطريقة بمنهجها السليبي المنحرف، والذي رأى فيه بلاءً وداءً عظيمًا على الأمة، فيقول: "حَارَبْنَا الطَّرِيقَةَ لَمَّا عَرَفْنَا فِيهَا . عَلِمَ اللَّهُ . مِنْ بَلَاءٍ عَلَى الْأُمَّةِ مِنَ الدَّاخِلِ وَمِنَ الْخَارِجِ، فَعَمِلْنَا عَلَى كَشْفِهَا وَهَدْمِهَا مَهْمَا تَحَمَّلْنَا فِي ذَلِكَ مِنْ صِعَابٍ"¹. لأنه رأى بثاقب بصيرته أنها خطرٌ على العقول، وإذا ما تعطلت العقول استعمرت النفوس، ومزقت الأنساب وانتهكت الأعراض، وتفسخت حضارة الأمة، وضاع دينها بين ركاب الخرافات، وفي زحمة الأباطيل.

يقول أحمد الريسوني: "وهذا في نظر كثير من العلماء هو العلم الحقيقي والفقهُ الحقيقي، وكما يقول ابن تيمية وغيره: (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، أو يميز الخير من الشر، ولكن العاقل والفقهُ هو من يعرف خيرَ الخيرين وشرَّ الشرين)، أو بتعبير ابن عبد السلام: (من يعرف أصلح المصلحتين وأفسد المفسدتين)"².

ثالثا. ميزان الشريعة أساس الترجيح بين المصالح والمفاسد:

ولكن لا بُدَّ من التنبيه إلى مسألةٍ مهمَّةٍ، وهي أنَّ الترجيح بين المصالح والمفاسد ليس أمرًا مزاجيًا، بل لا بُدَّ أن يُقاسَ بميزان الشريعة بعيدًا عن الهوى والمصالح الخاصَّة.³

ثمَّ إنَّ مقاصد الشريعة والمصالح والمفاسد صنوان توأمان لا ينفصمان؛ إذ جلب المصالح حفظٌ للمقاصد من جانب الوجود، ودرءُ المفاسد حفظٌ للمقاصد من جانب العدم.⁴

¹ - عبد الحميد بن باديس. مجلة الشهاب، مج14. المرجع السابق، ص12.

² - أحمد الريسوني. محاضرات في مقاصد الشريعة (ط3، مصر: دار الكلمة للنشر والتوزيع. 1435هـ/2014م) ص199 . 200.

³ - سميح عبد الوهاب الجندي. أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الحكم.

(ط1. سوريا: مؤسسة الرسالة ناشرون. 1429هـ/2008م) ص144.

⁴ . المرجع نفسه. ص144. 145.

رابعاً . منهج المرونة والتدرج في تحقيق المصالح:

إنَّ المنهج الذي اعتمد عليه ابن باديس في دعوته، يعتمد أساساً على المرونة والتدرج والحكمة، واحترام المراحل والتكيف مع الظروف والأحوال، وهو منهج يتطابق كلَّ التطابق مع منهج النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . في حماية الدعوة، وصيانة مُنجزاتها.¹

وهو منهج مقاصديٌّ قائمٌ على صوابية العمل، الذي مبدأه الإخلاص، وختامه تحقيق الأهداف والتتائج، دون التقيّد بلحظاتٍ من الزمن، بقدر ما يهمُّ تحقُّقها.

وأساسُ هذا المنهج التَّخطيطُ والأخذُ بالأسبابِ، فلقد أخذ ابن باديس سنَّة الأخذِ بالأسبابِ، وخطَّطَ مع إخوانه، ونظَّم الصُّفوفَ ووضع الأهدافَ وحدَّد المراحلَ والخطواتِ للوصول إليها، وأدرك طبيعة كلِّ مرحلةٍ وخصَّصَيتها.²

وتأكيداً لهذا المنهج، فقد كان ابن باديس يُنبِّه إخوانه العلماءَ إلى وجوب الاهتمام بالعمل في صمتٍ، من غير انتباهٍ ولا اشتغالٍ بباطلٍ الاستعمارِ وأعدائه؛ حفاظاً على خطة العمل، وتحقيق أهدافها القريبة والبعيدة، وحتى لا يضيع الوقتُ والجهودُ في الردِّ عليهم. فيقول لهم مُنبِّهاً إيَّاهم ومُحدِّراً: "ولكننا نعجبُ لأنفسنا ولكم؛ إذا أقمنا لتلك المعارضاتِ والمكائدِ وزناً، أو شغلنا بها حيناً من نفوسنا، أو أضعنا فيها حصَّةً من أوقاتنا. وَ إِنَّ أَدْنَى ما يَعْنُمُه المَبْطِلُ، أن يُضَيِّعَ الوقتَ على المَحَقِّ. و إِيَّيْ أُوْصِيكُمْ وَنَفْسِي في هذا المقامِ، أنْ يَكُونَ في حَقِّكُمْ، شَاغِلٌ عن باطلِ المَبْطِلِينَ. فإذا قامَ حَقُّكُمْ وَاسْتَوَى، قَضَيْتُمْ على المَبْطِلِينَ وباطلِهِمْ " .³

¹- مسعود فلوسي. البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس. مرجع سابق، ص 609.

²- علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص 407.

³- عبد الرشيد زروقة. جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر: 1913 . 1940م، المرجع السابق، ص 145.

خامسا . قصدُ الشَّارِعِ أصلٌ لقصدِ المُكَلَّفِ :

يقول الإمام الشَّاطِبيُّ في تقريره لهذا المعنى: " قصدَ الشَّارِعِ مَنْ المُكَلَّفِ أَنْ يَكُونَ قِصْدُهُ فِي الْعَمَلِ مُوَافِقًا لِقِصْدِهِ فِي التَّشْرِيعِ. " ¹

وفي اعتبار الإمام للمصلحة والمفسدة في منهجه المقاصديّ، نلاحظه يُرجع مقصدَ المُكَلَّفِ إلى مقصدِ الشَّارِعِ، فبعدما يقوم بتقسيم الأعمال إلى طاعاتٍ (مأمورٍ بها وجوبًا أو استحبابًا)، ومخالفاتٍ (منهيٍّ عنها تحريمًا أو كراهةً) ومباحاتٍ، يقول: "... فالمخالفاتُ بِقِسْمِهَا لَا تَقْبَلُهَا² النَّيِّاتُ طَاعَاتٍ، لِأَنَّهَا فِي قِسْمِهَا غَيْرُ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَلِأَنَّنا عَلِمْنَا بِالنَّهْيِ عَنْهَا أَنَّ قِصْدَ الشَّارِعِ هُوَ تَرْكُهَا وَعَدْمُ وَجُودِهَا، فَقِصْدُ المُكَلَّفِ مُضَادٌّ لِقِصْدِ الشَّارِعِ، فَكَانَ سَاقِطًا لَا عِبْرَةَ بِهِ، وَلَا أَهْمِيَّةَ لَهُ لِقَلْبِ الْوَضْعِ الشَّرْعِيِّ... " ³

وفي موضعٍ آخَرَ وفي نفسِ الموضوع يقول: " فعلى المرء أن يتَّهَمَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ مَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَزِنَ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ بِمِيزَانِ الشَّرْعِ الدَّقِيقِ خُصُوصًا مَا تَشْتَدُّ رَغْبَتُهُ فِيهِ، وَيَعْظُمُ حُسْنُهُ فِي عَيْنِهِ. " ⁴

فاعتباره موافقةً قصدِ المُكَلَّفِ لقصدِ الشَّارِعِ مِنَ التَّشْرِيعِ يُعَدُّ وَ يُعْتَبَرُ صَنِيعَ الْفُقَهَاءِ الْمُعْمَلِينَ لِلْمَقَاصِدِ، الَّذِينَ اصْطَلَحْنَا عَلَيْهِمْ اسْمَ الْفُقَهَاءِ (الْعَائِيْنَ)، وَمِنْهُمْ مُحَقِّقُو الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ. ⁵

¹ - أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد. مج3 (ط1). المملكة العربية السعودية: دار ابن عوف للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م ص23.

² - كما في الأصل، ولعله يقصد: " تَقْلِبُهَا " .

³ - عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره. مرجع سابق، مج1، ج2، ص185.

⁴ - المرجع نفسه، ص35 . 36.

⁵ - محمد عيسى. خصائص الفقه الباديسي ومعالم المدرسة الفقهية الباديسية في ضوء آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق. ص52.

سادسا . بناء المصالح والمفاسد على الأوامر والنواهي:

وها هو في مقامٍ آخر، يُوثقُ العلاقة بين صلاح العباد وأوامر الله تعالى، وبين ما ينهى تعالى عنه عباده والمفاسد والشُرور التي قصدَ دفعها ودرءها عنهم، فيقول: "فما أمر الله تعالى إلا بما هو خيرٌ وصلاحٌ لعباده، وما نهى تعالى إلا عما هو شرٌّ وفسادٌ لهم أو مُؤدِّ إلى ذلك، وإذا كان من المباحاتِ نظرنا في نتائجهِ وعواقبه ووازنًا بينها، فإذا علمنا بعد هذا كله من أمرٍ ذلك الفعل ما يقتضي فعله، فعلناه وإلا تركناه"¹. فيا له من عقلٍ أصوليٍّ مقاصديٍّ، وللهِ درُّه من عقلٍ!!

وعند معرضٍ تفسيره للآية السابقة (النور:62) يؤكد هذا المعنى، فيقول: "لما كان الاجتماعُ شرِّعاً للمصلحة، والذهابُ بدونِ استئذانٍ حُرِّمَ للمفسدة، فالمشروعيةُ والتَّحريمُ دائمانِ بدوامِ المصلحةِ والمفسدة، فأحكامُ الآيةِ مستمرةُ الأحكامِ عامَّةٌ للمسلمينَ في كلِّ زمانٍ وكلِّ مكانٍ مع أئمتِّهم وقادتهم والمُقدِّمينَ منهم فيهم في كلِّ ما يعرضُ من اجتماعٍ لصالحٍ عامٍّ."²

سابعا . موازنة إنفاق المال بين المصلحة والمفسدة:

وفي موازنةٍ رائعةٍ موضوعها إنفاقُ المالِ، وذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ

حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾. الإسراء:26.

فيقول: "والتَّبذيرُ هو التَّفريقُ للمالِ في غيرِ وجهٍ شرعيٍّ، أو في وجهٍ شرعيٍّ دونَ تقديرٍ، فيضُرُّ بوجهٍ آخر، فالإنفاقُ في المنهياتِ تبذيرٌ وإن كان قليلاً. والإنفاقُ في المطلوباتِ ليس بتبذيرٍ ولو كان كثيراً، إلا إذا أنفقَ في مطلوبٍ دونَ تقديرٍ، فأضُرَّ بمطلوبٍ آخر، كمن أعطى قريباً وأضاع قريباً آخر."³

¹ الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. مرجع سابق. ص140.

² عبد الحميد بن باديس. مجلة الشهاب، مرجع سابق، مج 13، ج1. ص10 . 11.

³ الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. المرجع السابق. ص116.

ثامنا . جورُ السلطانِ وأثرُهُ في فسادِ الضَّرورياتِ :

إنَّ الإمامَ ابنَ باديسَ مدركُ كاملِ الإدراكِ لِحُطْطِ الاستدمارِ الفرنسيِّ الَّذي يُريدُ إشاعةَ الفُسوقِ والفُجورِ في المجتمعِ الجزائريِّ، حتى يُكرِّسَ استعمارَه له روحياً وفكرياً وأخلاقياً، فيشيرُ إلى استبداده وجورِهِ، فيقولُ: "...فإنَّه إذا جارَ السُّلطانُ . وهو مَنْ له السُّلطةُ في تدبيرِ أمرِ الأُمَّةِ والتَّصرفِ في شُؤونِها . فسَدَ كلُّ شيءٍ: فسدتِ القلوبُ والعقولُ والأخلاقُ والأعمالُ والأحوالُ، وانحطَّت الأُمَّةُ في دينها ودُنياها إلى أحطِّ الدَّرجاتِ، ولحقَّها من جرَّائه كلُّ شرٍّ وبلاءٍ وهلاكٍ، ثُمَّ يتفاوتُ ذلكُ الفسادُ بحسَبِ ذلكِ الجورِ في قدره وسِعته ومدَّةِ بقائه." ¹

تاسعا . والحل :

يقولُ الإمامُ ابنُ باديسَ: "إنَّما يَنْهَضُ المسلمونَ بمقتضياتِ إيمانهم باللهِ ورسوله إذا كانتْ لهمُ قوَّةٌ، وإنَّما تكونُ لهمُ قوَّةٌ إذا كانتْ لهمُ جماعةٌ منظمَةٌ تُفكِّرُ وتدبِّرُ وتتشاورُ وتتأزَّرُ، وتنهضُ لجلبِ المصلحةِ ولدفعِ المضرةِ، مُساندةً في العملِ عن فكرٍ وعزيمةٍ." ²

إذْنَ فقد كانَ الإمامُ ابنُ باديسَ يعتمدُ على جماعتهِ (جمعية العلماء الجزائريين)، وجمهوره المؤازرِ لدعوتهِ المؤمنِ بقيادتهِ... يدعو المسلمينَ إلى أنْ يَنْقُثُوا في القلوبِ رُوحَ الاجتماعِ الشُّوري في كُلِّ ما يهْمُهُم من أمرِ دينهم ودُنياهم حتَّى لا يَسْتَبِدَّ بهم مُستبِدٌّ. وهكذا كانتْ فروعُ الجمعيةِ ومدارسُها قواعدَ شعبيةً قائمةً للتوعيةِ والنُّضالِ السِّياسيِّ، كما هي قائمةٌ أصلاً للدَّعوةِ والإصلاحِ الدِّينيِّ الشَّامِلِ ³.

¹ - حسن عبد الرحمان سلوادي. عبد الحميد بن باديس مُفسِّراً. مرجع سابق. ص154.

² - الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. المرجع السابق. ص221.

³ - محمد فتحي عثمان. عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة (ط1). الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع. 1407/هـ (1987م) ص128.

المطلب الثاني

اعتبار فقه المآلات وفقه الأولويات عند الإمام ابن باديس

معلومٌ لدى علماء الشريعة وفقهائها، أنَّ فهمها وتنزيلها يحتاج إلى الإمام بفقه الأولويات وفقه المآلات، واعتماد التدرُّج والمرحلية في ذلك.

فهو خاصيةٌ تُعدُّ من الثوابت المهمة في عملية الإصلاح والتغيير وتنزيل الأحكام، وهي ذات أصولٍ مُمتدةٍ إلى العصر النبويِّ وعصر السلف، وكما أنَّه ليس موضوعٌ مناسبات النزول والنسخ، وبعض مباحث التعارض والترجيح في الأخبار والمعاني وغير ذلك، إلاً دليلاً على تقرير هذا المبدأ العظيم، ووجوب الالتفات إليه في عملية تنزيل الأحكام، وإصلاح النَّاس، وتحقيق المقاصد.¹ واعتبارُ المال له أهميةٌ كبيرةٌ في تفسير النصوص الشرعية، فإذا استوعبنا وأدركنا ذلك فإننا سنلاحظُ العلاقة الوطيدة التي تجمعهُ بفقه التنزيل، فإذا ما طُبِّق الحكم دون مراعاة مآله أفضى بذلك إلى ما يُناقضُ مقصده الشرعيّ.² وعدمُ مراعاة المال في تفسير النصوص قد يؤدي إلى الوقوع في آفة التعسف في استعمال الحق، ومناقضة قصد الشرع. وما العمل بالمقاصد عمومًا إلاً الأخذ بالمصالح واعتبار المآلات.

ومعلومٌ لدى أهل الاختصاص أنَّ فقه الأولويات يرتبطُ كذلك بفقه مقاصد الشريعة، فمن المتفق عليه أنَّ أحكام الشريعة في مجموعها مُعلَّلة، وأنَّ وراء ظواهرها مقاصدٌ هدف الشَّرْع إلى تحقيقها.³

¹ - نور الدين بن مختار الخادمي. الاجتهاد المقاصدي حجيته، ضوابطه، مجالاته. ج2 (ط1، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. كتاب الأمة. العدد: 66. السنة: 18. رجب 1419هـ. أكتوبر - نوفمبر 1998م) ص152 . 153.

² - بلقاسم قراري. اعتبار المال في تفسير النصوص عند السادة المالكية. (مجلة الدراسات الإسلامية. جامعة: عمار تليجي بالأغواط. قسم العلوم الإسلامية. العدد: 4، سبتمبر: 2014م) ص300.

³ يوسف القرضاوي. في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة (ط1، لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. 1421هـ/2000م) ص38.

وتقتضي آليات هذا الفقه ألا يُقدّم غير الأهمّ على المهمّ، ولا المهمّ على الأهمّ، ولا المرجوح على الرّاجح، ولا المفضول على الفاضل أو الأفضل، بل يُقدّم ما حقّه التّقديم، ويؤخّر ما حقّه التّأخير، ولا يُكبّر الصّغير ولا يُهوّن الخطير، بل يوضّع كلّ شيءٍ في موضعه بالقسطاس المستقيم، بلا طغيانٍ ولا إخسار¹.

وهذا النوع من الفقه. وبالإضافة إلى فقه المآلات. يحتاج إلى ذي عقلٍ حصيفٍ، إذ إنّ العِلْمَ للإسلام، كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدّين مُستقرّاً له إلاّ عند أصحاب المعارف النّاضجة، والألباب الحصيفة².

فاجتهد حين يجتهد ويحكم، ويُفتي عليه أن يقدر مآلات الأفعال، التي هي محلّ حكمه وإفئائه، وأن يُقدّر عواقب حكمه وفتواه، وألاّ يعتبر أنّ مهمّته تنحصر في إعطاء الحكم الشرعيّ. بل مهمّته أن يحكم في الفعل وهو يستحضر مآله أو مآلاته، وأن يُصدر الحكم وهو ناظرٌ إلى أثره أو آثاره... فإذا لم يفعل، فهو إمّا قاصرٌ عن درجة الاجتهاد أو مقصّرٌ فيها³.

وفيما يلي بيانٌ للأبعاد المقاصديّة عند الإمام ابن باديس، و ذلك من خلال إدراكه لأهميّة وخطورة فقه المآلات واعتباره لفقه الأولويات:

أولاً. مراعاة المُوازنة والمرونة والتدرُّج:

انتهج الإمام ابن باديس في عمله الإصلاحيّ، منهج المرونة والتدرُّج في تعامله مع الإدارة الاستعمارية، ولم يُرد إثارة سخطها، حتّى لا تقف عقبةً أو تحوّل دون تحقيق أهدافه المتمثّلة في إخراج الشّعب الجزائريّ من ظلّمة الجهل، إلى نور العلم، ومن أغلال الاستعمار الغاشم، إلى الحرّيّة ورحابها. فالرجل. كما يقول مسعود فلوسي. : " لم يكن يسيرٌ سيراً أهوج لا يعتمد على أساسٍ علميّ أو منهجيّ، وإمّا كان يحسب لكلّ خطوةٍ حسابها، لأنّه يُدرك ثقل الحمل الذي

¹- المرجع السابق.ص9.

²- محمد الغزالي. خلق المسلم (ط15، الجزائر: مكتبة رحاب. 1408هـ/1987م)ص214.

³- أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، مرجع سابق.ص381.

كان يجمّله، ولقد اضطرّته الظروفُ في بعض الأحيان إلى أن يُمارسَ نوعًا من المهادنةِ للسلطاتِ الاستعماريةِ و يُداريها بإظهارِ التّوقيرِ والاحترامِ لِرِجالِها، ولكنّه كان يفعلُ ذلكَ لأنّه رأى أنّ المرحلةَ كانت تقتضيه، حتّى لا تموتَ دعوتهُ في مهدها، ويُقتضى على حركتهِ الإصلاحيةِ قبل أن تُؤثّرَ أكلها"¹. وهل معنى ذلك أن الرجلَ كان يقبلُ الدنيّةَ والذلَّ في دينه؟! لا بل إنّه كان كثيرًا ما يثورُ في وجهِ بعضِ الممارساتِ الاستعماريةِ، ويُعلِنُ عليها الغضبَ والثّورةَ، ولكن دائمًا بحكمةٍ ورويةٍ وتغليبِ لمصلحةِ الدّعوة.²

وفي مناسبةٍ أُخرى يُبرِزُ الجانبَ البَراغماتيّ الذي يجبُ على فرنسا أن تقومَ به تجاهَ الجزائريين، وبكلِّ ذكاءٍ يُسميهما "أمتين"، فيقول: "... إنّ الأُمَّةَ الجزائريّةَ أُمَّةٌ ضعيفةٌ ومتأخّرةٌ، فترى من ضرورتها الحيويّةِ أن تكونَ في كنفِ أُمَّةٍ قويّةٍ عادلةٍ مُتمدّنةٍ، لتُرفّئها في سلّمِ المدنيّةِ والعِمرانِ، وترى هذا في فرنسا التي ربّطتها بها روابطُ المصلحةِ والودادِ، فنحنُ نخدمُ للتّفاهمِ بين الأمتين"³. وهكذا وبالنظرِ إلى مسلكه المقاصديّ في بُعدِ اعتبارِ المآلاتِ، طرحَ البديلَ لفرنسا بأسلوبٍ هادئٍ عميقٍ وراسخٍ، وبنظرةٍ بعيدةِ المدى، مُتأسّيًا بأساليبِ الأنبياءِ. عليهم السلام. ، ومُطالبًا فرنسا العظيمةَ والقويّةَ أن تُساعدَ الجزائريينَ من أجلِ إنقاذهم من مُستنقعِ جهلهم وتخلّفهم، وليس بتذويبهم في ثقافتها، مُوهما إياها أن ذلك لا يخدمُ مصالحها، إذا بقي الجزائريون يعانون في غياهبِ الجهلِ، وأقبيّةِ التخلّفِ.

ولن يكونَ لفقهِ المآلاتِ وفقهِ الأولوياتِ معنى، دون مُراعاةِ سنّةِ التدرُّجِ، وهي سنّةُ الله تعالى في عالمِ الخلقِ وعالمِ الأمرِ، وهو منهجُ التّشريعِ الإسلاميّ، وهذا ما انتهجَهُ الإمامُ في مشروعِهِ، فلقد سلكَ في دعوتهِ مسلكًا يشهدُ بحكمتِهِ، ورجاحةِ عقلِهِ وسدادِ فكرتهِ، منهجٌ كفيلاً بتحقيقِ

¹- مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده، مرجع سابق، ص105.

²- المرجع نفسه، ص105.

³- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. مرجع سابق، ج5، ص174.

تلك الأهداف، المنهج الذي يقوم على: الحكمة والمرونة والتدرج، واستعمال اللبابة وأنجع الأساليب الواجب اتخاذها، والمراحل اللازم اجتيازها¹.

وهو بهذا البعد المقاصدي، يرى أن حفظ الاعتقاد هو أولى أولويات حفظ الدين ورعايته؛ إذ نلاحظ أن الإمام ابن باديس يؤكد هذا المنهج الأولوي مع اعتبار المآلات، فيقول: "وقد كانت وجهتنا الأولى في النقد الديني هي الاعتقادات، ولقد كان همتنا الأولى تطهير عقيدة التوحيد من أوضار الشرك، القوي والفعلي والاعتقادي، فإن التوحيد هو أساس السلوك"².

لقد أخذ ابن باديس سنة الأخذ بالأسباب، وخطط مع إخوانه ونظم الصنفوف، ووضع الأهداف وحدد المراحل والخطوات للوصول إليها، وأدرك طبيعة كل مرحلة وخصوصيتها، بحيث لا يعتمد على تجاوز المراحل أو حرقها فيقوع في داء الاستعجال المدمر، فيتعجل النتائج قبل أوانها فيعاقب بحرمانها³.

وهكذا نجد العلامة ابن باديس يؤمن بمبدأ التدرج في التعليم، والبديء بالسهل واستيعابه، للوصول إلى الصعب الغامض وفهمه⁴.

فهو لا يسلك مسلك العلماء شديدي التزمّت الذين يغرسون اليأس في النفوس، بل كان يجذب الناس إلى حركته بالتواضع والموّدة، فقد قيل أنه كان يُعامل تلاميذه كأبنائه، وأنه كان يُودّعهم فردًا فردًا عند سفرهم إلى قراهم أو بلادهم⁵.

¹- مسعود فلوسي. البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس. مرجع سابق، ص 609.

²- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. المرجع السابق، ج 5، ص 75.

³- علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص 407.

⁴- المرجع نفسه، ص 423.

⁵- عبد الكريم بوصفصاف. الفكر العربي الحديث والمعاصر محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجًا، ج 1 (لا.ط، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت) ص 303.

ثانيا . اعتبارُ المالِ في فتوى تحريمِ التَّجْنِيسِ :

إنَّ النَّاطِرَ إلى فتوى ابنِ باديس في تحريمِ التَّجْنِيسِ بالجنسيَّةِ الفرنسيَّةِ . آنذاك . نظرةً عميقةً، يدركُ إدراكًا جازمًا بُعدَ فقهِ الإمامِ المقاصديِّ، وذلك باعتبارِ المالِ في فتواه .
حيث إنَّ مقتطفَ نصِّ الفتوى ضدَّ التَّجْنِيسِ، يَينُمُ عن اسْتِشْعَارِ ابنِ باديس بالعواقبِ التي ستَنجُرُّ على صاحبِ حاملِ الجنسيَّةِ الفرنسيَّةِ، لأنَّ ذلك سيَجْرُهُ حسبَ القانونِ الفرنسيِّ إلى تخليِّهِ عن أصلِهِ وفصلِهِ، وهو الدِّينُ الإسلاميُّ بالدرجَةِ الأولى، كَمَا سَيَسْرِي ذلك القانونُ على أبنائه وأحفاده.¹

فالإمام ابن باديس رأى رؤيةً مقاصديةً، وذلك باعتبارِ المالِ، لأنَّ ما سينتجُ عن التَّجْنِيسِ بالجنسيَّةِ الفرنسيَّةِ . آنذاك . سيكون وبالاً، لا على المتجنِّسِ لوحدهِ كفردٍ، ولكن على كلِّ الأُمَّةِ الجزائريَّةِ المسلمةِ . فيا لها من نظرةٍ مقاصديةٍ، ويا له من بُعدِ نظرٍ من إمامٍ نافذِ الفكرِ، مُستتيرِ العقلِ، يرى ببصيرةٍ أبعادَ الأمورِ، ومصائرَ الأفعالِ!!! ذلك لأنَّ نوازِلَ الواقعِ قد تكونُ مُندرجةً ضمنَ حكمٍ شرعيِّ جليِّ اندراجًا واضحًا، ولكنَّها في مجرىِ حدوثِها أو في مآلِها، قد تكونُ مُفضيةً إلى غيرِ المصلحةِ التي يَتغيَّها ذلك الحُكْمُ.²

وفي مثل هذهِ المستجدَّاتِ من الأحداثِ والنَّوازلِ، يتعيَّنُ على أهلِ الاجتهادِ الالتفاتُ إلى مآلاتِ التَّطْبِيقِ، واعتبارُها مُوجِّهاً معيارياً للحُكْمِ المُستأنفِ، وفقَ مُعطياتِ المرونةِ الاجتهاديةِ التي يُتيحُها وضعُ المشروعاتِ تفادياً للمفاسدِ والأضرارِ التي تتولَّدُ عن إهمالِ اعتبارِها ومُراعَاتها.³

¹ - خالد بوهند. الإمام ابن باديس ومواقفه من الإندماج. (مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة: عمار ثليجي بالأغواط. قسم العلوم الإسلامية. العدد: 4، سبتمبر: 2014م) ص 516 . 517.

² - عبد الحميد النجار. في فقه التدنُّنِ فهمًا وتنزيلًا، ج2 (ط1)، قطر: مطابع مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، جمادى الأولى 1410هـ) ص80.

³ - عبد الرحمان بن معمر السنوسي. اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات (ط1)، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، رجب 1424هـ) ص60.

ثالثا . المقاصد قبل الوسائل والظواهر:

ومن فقه الإمام في الأولويات أنه كان يُقدّم الأصول على الفروع، والمقاصد على الوسائل والظواهر، وكان ينطلق في دعوته وإصلاحه من معرفة عموديّة وأفقية لمُجتمعِهِ، عاداتِهِ وأعرافِهِ، ممّا يستدعي دراسة واعية وشاملة للأمور التي قد تُؤثّر في جريان الحكم الشرعيّ مجراه الحقيقيّ، على أن النظر إلى نتائج التشريع ومآلاته أصلٌ من أصول هذا التشريع. والنظر إلى مآلات الأفعال معتبرٌ ومقصودٌ شرعاً، وإنما العبرة بالمقاصد، ولا قيمة للظواهر والوسائل إذا لم تتحقّق مقاصدها.

رابعا . سدّ الذرائع وعلاقته بفقه المآلات:

والكلام عن فقه الأولويات يدفعنا إلى الحديث عن قاعدة سدّ الذرائع، ذلك أنّ هذه القاعدة هي من القواعد والآليات التي تتعامل مع الأحكام، ناظرة إلى مآلاتها وثمراتها، على أساس أنّ الأحكام الشرعيّة إنّما أُسست لتجسيد تلك المقاصد الشريفة والأهداف المنيّة، من جلب للمصالح ودرء للمفاسد.¹

ولكون ابن باديس مالكي المذهب، فقد تأثّر من خلال تكوينه . بتطبيقات المالكيّة لهذه القاعدة التي تتعامل مع الأحكام بالنظر إلى مآلاتها، وهذه التطبيقات تنطلق من برنامج متكامل ودراسة واعية وكثيفة، تنظر إلى النتائج ليس فقط من خلال المقدمات، ولكن من خلال الملبسات والظروف التي تكتنف الحدث، وتساهم في إخراجهِ.²

والمتنبّع لفتاوى ابن باديس ومن معه من شيوخ جمعية العلماء، يُلاحظ في أعمال الجمعية لسدّ الذرائع في فتاواها عدم غفلتها عن مصلحة الأصل الذي أناطت سدّ الذرائع به، ولقد

¹- محمد بن أحمد سيد أحمد زروق. سدّ الذرائع في المذهب المالكي (ط1، بيروت: دار ابن حزم، 1433هـ/2012م) ص292.

²- المرجع نفسه، ص292.

أَقْرَبَتْ بِهَا وَاعْتَبَرَتْهَا مصلحةً شرعيةً مِنْ جنسِ المصالحِ الشرعيةِ الأخرى، إِلَّا أَنَّهُ انْغَمَرَتْ فِي مَفْسَدَةِ الْمَالِ فَأَضْحَتْ لَا تُعَدُّ شَيْئًا وَلَا تُقَارَنُ بِهَا.¹

خامسا . الأولوية للقرآن الكريم:

وَمِنْ تَمَامِ فَهْمِ الْأُولِيَّاتِ عِنْدَ ابْنِ باديس، أَنَّهُ أَعْطَى فِي مَنْهَجِهِ الْإِصْلَاحِيَّ وَ التَّرْبُويَّ، الْأُولِيَّةَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعُلُومِهِ - فَهَمًّا وَتَنْزِيلًا -، وَهَذَا مِيعَارٌ لَا يَخْطِئُ أَبَدًا؛ إِذْ مِنْ الْمَعَايِرِ الَّتِي يَنْبَغِي الرَّجُوعُ إِلَيْهَا فِي بَيَانِ مَا هُوَ أَحَقُّ وَ أَوْلَى بِالرَّعَايَةِ وَالتَّقْدِيمِ عَلَى غَيْرِهِ أَنْ نُعْنَى بِالْأَمْرِ عَلَى قَدْرِ مَا عَنَى بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.²

سادسا . التربية قبل الثراب:

أَيُّ تَحْرِيرِ الْعُقُولِ قَبْلَ تَحْرِيرِ الثُّرَابِ وَالْأَرْضِ، فَلَقَدْ وَجَّهَ ابْنُ باديس أَغْلَبَ جَهْدِهِ الْإِصْلَاحِيَّ إِلَى تَرْبِيَةِ وَإِصْلَاحِ النَّشْءِ، وَقَبْلَ مُوَاجَهَةِ فَرَنْسَا بِالسَّلَاحِ وَالْحَدِيدِ، كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ الْأُولِيِّ أَنْ يُوَاجَهَهَا بِسِلَاحِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَذَلِكَ بِمُحَارَبَةِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَاتِ، إِذْ بِنَاءُ الْإِنْسَانِ وَ تَكْوِينُهُ يَسْبِقُ كُلَّ دَعْوَةٍ إِلَى تَحْرِيرِ الْأَرْضِ الَّتِي يَقِفُ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ.

وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَقُولُ تَرْكِي رَابِحَ عَمَامَرَةَ: "لَأَنَّ هَدَفَهُ الْبَعِيدَ هُوَ تَغْيِيرُ الْوَقَاعِ الْجَزَائِرِيِّ بِكُلِّ حُمُولِهِ وَسَلْبِيَاتِهِ كَمَا ذَكَرْنَا، وَالطَّرِيقُ إِلَى ذَلِكَ هُوَ تَحْرِيرُ عُقُولِ الْجَزَائِرِيِّينَ مِنَ الْجُمُودِ وَالْحُرَافَاتِ وَالْجَهْلِ وَاللَّامُبَالَاةِ".³

¹- بوبكر صديقي. البعد المقاصدي في فتاوى أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. دراسة من خلال جريدة البصائر: 1935 م . 1956م(مذكرة ماجستير . فقه وأصول) كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية والعلوم الإسلامية . جامعة الحاج لخضر باتنة. 1431هـ . 1432هـ / 2010 م . 2011 م. ص186.

²- يوسف القرضاوي. في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة. مرجع سابق، ص100.

³- تركي رابح عمامرة. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر. مرجع سابق. ص205.

سابعا . ارتباطُ فقهِ الأولوياتِ بفقهِ الموازناتِ :

معلومٌ لدى علماءِ الشريعةِ أنَّ فقهَ الأولوياتِ مرتبطٌ بفقهِ الموازناتِ، الذي يقومُ على الموازنةِ بينَ المصالحِ بعضها ببعضٍ، وبينَ المفسادِ بعضها ببعضٍ، وكذلك بينَ المصالحِ والمفسادِ إذا وقعَ بينها تعارضٌ أو تصادمٌ، وهذا ما نلَمَسُه في مسيرةِ ابنِ باديسِ ذاتِ البُعدِ المقاصديِّ.

ففي موازنةٍ بديعةٍ بينَ ما ينتجُ عن إنفاقِ المالِ وتدييره من مصالحٍ ومفسادٍ، يُسفر عن وجهٍ رائعٍ من وجوهِ فقههِ في ترتيبِ الأولوياتِ، وبالتَّظَرِ إلى مآلاتِ ذلكِ التصرفِ، فيقولُ: " والتَّبدِيرُ هو التَّفريقُ للمالِ في غيرِ وجهٍ شرعيٍّ، أو في وجهٍ شرعيٍّ دونَ تقديرٍ، فيضَرُّ بوجهٍ آخرٍ، فالإنفاقُ في المنهياتِ تَبذِيرٌ وإن كان قليلاً، والإنفاقُ في المطلوباتِ ليس بتبذيرٍ ولو كان كثيراً، إلَّا إذا أنفقَ في مطلوبٍ دونَ تقديرٍ، فأضَرَّ بمطلوبٍ آخرٍ، كَمَنْ أعطى قريباً وأضاعَ قريباً آخرَ، أو أنفقَ في وجوهِ البرِّ، وتركَ أهلهُ يتضَوَّرُونَ بالجوعِ " ¹.

يقولُ الإمامُ أبو إسحاقِ الشَّاطِبيُّ: "...لأنَّا نقولُ: إذا تقابلتِ المصلحةُ والمضرةُ فشانُ العقلاءِ النَّظَرُ إلى التَّفَاوُتِ " ²؛ أي التَّفَاوُتُ بين المصلحةِ والمضرةِ أو المفسدةِ.

ثامنا . جوابُ أساسه اعتبارُ المالِ وسدُّ الدَّرِيعَةِ:

وفي معرضِ جوابِهِ على المفتيِّ الحنفيِّ بتونس، الشيخِ مُحَمَّدِ بنِ يوسف، فيما يتعلَّقُ بحجابِ المرأةِ المسلمةِ، وبعد أن استدَلَّ ابنُ باديسِ بجملةٍ من الآثارِ، كلُّها أفادتُ لما دَلَّتِ الآيةُ الكريمةُ (النور: 31) على أنَّ الوجهَ والكفَّينِ ليسا بعبورةٍ، وأنَّه لا يجبُ على المرأةِ سترُهما، قال: "نعم نصَّ أكثرُ الفقهاءِ المتأخريينَ مع جميعِ المذاهبِ، على أنَّ المرأةَ يجبُ عليها سترُ وجهها، إذا خُشيتُ منها الفتنةُ، وهذا حُكْمٌ عارضٌ مُعلَّلٌ بهذهِ العِلَّةِ، فيدورُ معها وجودًا وعدَمًا، ولذا لما كُنَّا نَتَحَقَّقُ الفسادَ بسفورِ نساءِ المدنِ والقُرى - وحالتنا هي حالتنا - لا نرى لهُنَّ جوازَ السُّفورِ ما دامت

¹- الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. مرجع سابق. ص 116.

²- أبو إسحاق الشاطبي كتاب الاعتصام. ج 2 (لا. ط، لبنان: دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م) ص 83.

هاتِه الحال. ونعرف نساء جهات في بادية قُطِرنا لا يسترُن وُجوههنَّ وليسَ بهنَّ فسادٌ ولم تَقع بهنَّ مِن فِتنةٍ، فلَمَّا سُئِلنا عن سُفورهنَّ أَجَبنا بتركهنَّ على حالهنَّ أَخذاً بِأصلِ الجوازِ "1.

وفي سياق هذا المعنى يقول الإمام الشَّاطِبيُّ: "والشَّريعةُ مبنيةٌ على الاحتياطِ والأخذِ بالحزمِ، والتحرُّزِ ممَّا عسى أن يكونَ طريقًا إلى مفسدةٍ"2.

فالإمام ابن باديس المجتهدُ، كان جوابُهُ مؤسَّسًا على اعتبارِ المالِ، وإلى جانبِ أخذهِ بالعرفِ الموافقِ للشَّرعِ، فقد اعتمدَ في ذلكِ . أيضًا . على مبدأ سدِّ الدَّرِعةِ.

ومعلومٌ أنَّ المجتهدَ ينظرُ إلى الأفعالِ، وما تنتهي في جُمليتها إليه، فإن كانت تَنحُو نحوَ المصالحِ التي هي المقاصدُ والغاياتُ، كانتَ مطلوبةً بمقدارِ ما يُناسبُ طلبَ هذهِ المقاصدِ، وإن كانتَ مآلًا تُنحُو نحوَ المفسادِ، فإنَّها تكونُ مُحَرَّمةً، بما يتناسبُ معَ تحريمِ هذهِ المقاصدِ، وهذا الأخيرُ هو سدُّ الدَّرِائعِ. فالجتهُ لا يستطيعُ أن يسدَّ الدَّرِعةَ حتَّى يعرفَ مآلها وثمرتها، فحينئذٍ يحكمُ عليها بما يناسبُها3.

1- عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره، مرجع سابق، مج1، ج2، ص132.

2- أبو إسحاق الشَّاطِبي. الموافقات، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد. مج3، مرجع سابق. ص85.

3- محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (ط1)، المملكة العربية السعودية: درا الهجرة للنشر والتوزيع. 1418هـ/1998م) ص582.

المطلب الثالث

النَّظَرُ الكَلْبِيُّ فِي مُعَالَجَةِ المُشْكَلَاتِ عِنْدَ الإِمَامِ ابْنِ بَادِيس

إنَّ المُتَّبِعَ لمسيرَةِ ابنِ باديسِ التَّربويَّةِ والإصلاحيَّةِ، يُدركُ تَمَامَ الإدراكِ أنَّه كانَ صاحِبَ نظَرٍ كَلْبِيٍّ فِي مُعَالَجَةِ المُشْكَلَاتِ الَّتِي كَانَتِ الأُمَّةُ الجَزائِرِيَّةُ تُعانيُ مِنْهَا، رَغْمَ تَشَعُّبِ وصَعُوبَةِ وتَعَقُّدِ هَذِهِ المُشْكَلَاتِ، فَهُوَ مُصْلِحٌ ذُو بَعْدٍ مَقاصِدِيٍّ فِي تَصَوُّرِهِ لِكُلِّ جُزْئِيَّاتِ المُشْكَلَةِ، وَمِنْ نَتْمٍ مُعَالَجَتِهَا بِمرونةٍ وتدرُّجٍ وَحِكْمَةٍ، إِنَّهُ رَجُلٌ عَظِيمٌ كَمَا وَصَفَهُ رَفِيقُ دَرِيهِ الإِمَامُ البَشِيرُ الإِبْرَاهِيمِيُّ بِقَوْلِهِ: "...وَعَبْدُ الحَمِيدِ بَنُ بَادِيسٍ عَظِيمٌ بِأَكْمَلِ مَا تُعْطِيهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ مِنْ مَعْنَى؛ فَهُوَ عَظِيمٌ فِي عِلْمِهِ، عَظِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ، عَظِيمٌ فِي بَيَانِهِ وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ، عَظِيمٌ فِي تَرْبِيَّتِهِ وَتَثْقِيفِهِ لِجِيلٍ كَامِلٍ، عَظِيمٌ فِي مَوَاقِفِهِ مِنَ المَأْلُوفِ الَّذِي صَيَّرَهُ السُّكُوتُ دِينًا،...وَإِذَا كَانَ مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ فِي العُظَمَاءِ - أَتَمُّ يَبْنُونَ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً، وَيُخْرِجُونَ مِنَ العَدَمِ وَجُودًا، وَيُنشِئُونَ مِنَ المَوْتِ حَيَاةً - فَكُلُّ ذَلِكَ فَعَلَ عَبْدُ الحَمِيدِ بَنُ بَادِيسٍ مِنَ الأُمَّةِ الجَزائِرِيَّةِ " ¹.

وَفِي جِهَادِهِ يَقُولُ أَيْضًا: "... وَحَسْبُهُ مِنَ المَجْدِ التَّارِيخِيِّ أَنَّهُ أَحْيَا أُمَّةً تَعاقَبَتْ عَلَيْهَا الأَحْدَاثُ وَالغَيَّرُ، وَدِينًا لَأَبْسَتْهُ المَحْدَثَاتُ وَالبِدْعُ، وَلِسَانًا أَكَلَتْهُ الرِّطَانَاتُ الأَجْنِبِيَّةُ، وَتَارِيحًا غَطَّى عَلَيْهِ النَّسِيَانُ، وَمَجْدًا أَضَاعَهُ وَرَثَةُ السُّوءِ، وَفَضَائِلَ قَتَلَتْهَا رِذَائِلُ العَرَبِ... " ².

وَفِيمَا يَلِي عَرَضٌ لِأَهَمِّ مَلامِحِ نَظَرِهِ المَقاصِدِيَّ الكَلْبِيِّ، وَأَبْعَادِ رُؤْيَتِهِ الشَّامِلَةِ فِي مُعَالَجَتِهِ لِمُشْكَلَاتِ مُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ:

¹- محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر (لا.ط، الجزائر: شركة دار الأمة. 2007م) ص 684 . 685.

²- المصدر نفسه. ص 632.

أولاً . معرفة عميقة للواقع:

اعتمد ابن باديس في خُطَّته الإصلاحية على دراسة عميقة للوضع القائم بالجزائر، ونظرٍ بعيدٍ مُستشرفٍ للمستقبل، مُستندًا في ذلك كُله إلى مقاصدِ وأهدافِ التشريع الإسلامي، سواءً في أحكامه الكلية أو الجزئية التفصيلية. فلقد امتازت هذه الخُطة بالإحكام والدقة، وبعُد النظر واستشراف المستقبل ووصف العلاج النَّاجح، وهو نشر العلم والعقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة، والأخلاق الفاضلة، والقيم السامية، والمبادئ الحميدة، وتربية الناس على مقاصد القرآن الكريم وتعاليمه، والاسترشاد بهدي النبي صلى الله عليه وسلم . ، والمحطات المضئية من التاريخ الإسلامي البشري.¹

ثانياً . اعتماده على الكتاب والسنة في التغيير والإصلاح:

بالإضافة إلى معرفته للواقع معرفة عميقة، واستيعابه لمشكلاته بدقة؛ إذ لم يغب عنه ولا لحظة واحدة، أن صلاح هذه الأمة مرهونٌ بالمنهج الذي صلح به أولها، واختبر ذلك في نفسه وما تحقق له من نُقلة ثقافية فتحت بصيرته بسبب صلته بالقرآن وانضباطه بمنهجه².

ثالثاً . إصلاح المناهج التعليمية وإحياء رسالة المسجد:

لقد أدرك ابن باديس بثاقب بصيرته، وعميق نظره، أن هناك داءً و خللاً كبيراً في مناهج التعليم، وهذا الأمر لم يكن مقصوداً على المدارس التي أنشأها فرنسا، بل حتى مدارس التعليم الشرعي الحرّة التي أُصيبت بالعجز والعقم، وتحوّلت من إدراك المقاصد وتحقيق الأهداف، إلى استنزاف الطاقة في علوم الآلة (الوسائل) دون استخدامها، فأضاعت بذلك الأجر والعمر، وانعزلت عن ضمير الأمة وبعثت هضبتها، وسمحت بامتداد الآخر.³

¹ - علي محمد محمد الصلابي . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس. مرجع سابق، ص 117.

² - عمر عبيد حسنة، الاجتهاد للتحديد سبيل الوراثة الحضارية، مرجع سابق. ص 82 . 83.

³ - المرجع نفسه. ص 85.

لذلك كان من واجب المصلحين إصلاح العقول قبل إصلاح الأعمال، وتغيير الأفهام قبل تشريع الأحكام، حتى تهياً العقلية العامة لقبول دين الله تعالى على أنه نظام شامل وواقعي، وإنساني ومُتوازن¹، كما أن الإمام المصلح ابن باديس قد استرد رسالة المسجد في التعليم الجماهيري العام، أو الثقافة الجماهيرية. إن صح التعبير. واعتبر تعليم الجماهير في المسجد هو صنو الصلاة، من حيث أثره وانعكاساته على الواقع الاجتماعي والتربوي²، وخاصة إذا علمنا ما كان الاستعمار الفرنسي يفعله من أجل ارتهان الثقافة والتربية الإسلامية.

رابعا. الصحافة الإصلاحية:

كان عمل ابن باديس الإصلاحي ميدانياً واقعياً، اقترن بالوعظ والإرشاد الذي أنار للناس دربهم، وهداهم للتي هي أحسن، وشحن أرواحهم بما جدّد فيها همّتها بعد ركود، وأحيا عزيمتها بعد ممات، فكان من أبرز وسائله وآلياته في ذلك الصحافة الإصلاحية، لما لها من دور مؤثّر في التثقيف وتشكيل الرأي العام، والتي كانت بمثابة أكاديمية أو وزارة ثورية وصية، تُوجّه وتعهّد الشبكة التثقيفية والتنويرية التي يمثّلها العاملون في حقل الدين والتربية³. وهكذا كان للصحافة الوطنية، وإحياء التراث العربي ونشر الأعمال التاريخية، وإنشاء النوادي الثقافية أثر بالغ الأهمية في إيقاظ الجماهير من رقدتها الطويلة⁴.

فالجرائد مدارس متجولة، ليست محصورة بين جدران ولا يختص بها مكان دون مكان، وهي أوسع دائرة الإرشاد من كل دوائر التعليم، تُهدب العامة، وتربّب أفكار الخاصة، وتنهض الهمم

¹ نور الدين بن مختار الخادمي. الاجتهاد المقاصدي حجيته، ضوابطه، مجالاته. ج2. مرجع سابق. ص162.

² عمر عبيد حسنة، الاجتهاد للتحديد سبيل الوراثة الحضارية. المرجع السابق. ص86.

³ سليمان عشراقي. ابن باديس، ج3 (لا.ط، الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، د.ت) ص80.

⁴ عبد الكريم بوصفصاف. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية: 1931.

1945. (لا.ط، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع. 2009م) ص65.

القاعدة، وتُصلح الألسنَ الفاسدة وتُقرب الأمم المتباعدة، وهي سجلُّ الأخبار، ووعاءُ التاريخ،
وتقومُ الزَّمن.¹

خامسا . المصلحُ المُستثمرُ وعواملُ التنمية:

ومَّا يُؤكِّدُ بُعدَ مسلكه المقاصديِّ، من خلالِ نظره الكليِّ والشاملِ لمشكلاتِ مجتمعه وأُمَّته،
كونه مُصلحًا مُستثمرًا، فلقد كان يعرفُ قيمةَ المالِ ويعتبره نعمةً تُعينُ على إنجازِ مشاريعِ الخيرِ
والإصلاحِ، فلذلكَ كان يرى أنَّ الواجبَ يُقتضي الحمدَ عليها والشُّكرَ، ثُمَّ العملَ على إنفاقها
في أبوابِ المبرِّة الأكثرِ إثمارًا²، حيث كان يتعدُّ بنظرته الإصلاحية عن رُوحِ المكائنة والجمعِ
التي تستهوي أصحابَ الأموالِ، ومن لا تفكيرَ لهم، ولا فهمَ لمعنى الغنى ووظيفةِ المالِ، فالغنى
عنده هو غنى الرُّوحِ بالقيمِ، وخصوبةُ المشاعرِ بالأفكارِ، وثراءُ الواقعِ بالمنجزاتِ التي تجعلُ من
دوي الحُظوظِ أناسًا يُجيدون إدارةَ المالِ، بحيثُ يعودُ تثيرُهُ على المجتمعِ والجماعةِ بالنفعِ.³

وابن باديس يطرحُ مفهومًا حضاريًّا شاملًا للتنمية، فهي التي لا بُدَّ - حسبهُ - أن تكونَ علميَّةً
وأخلاقيةً واقتصاديةً وعسكريةً وتربويَّةً، فيقول: " إنَّ الأسبابَ الكونيَّةَ التي وضعها الله تعالى في
هذه الحياةِ وسائلٌ مسبباتها مُوصلةٌ . بإذنِ الله تعالى . من تمسكَ بها إلى ما جُعِلت وسيلةً إليه،
بمقتضى أمرِ الله وتقديره، وسُننه في نظامِ هذه الحياةِ والكونِ، ولو كان ذلكَ المتمسكُ بها لا يؤمنُ
بالله ولا باليومِ الآخرِ ولا يُصدِّقُ المرسلينَ . ومن مُقتضى هذا أنَّ من أهملَ تلكَ الأسبابَ الكونيَّةَ
التقديريَّةَ الإلهيَّةَ ولم يأخذَ بها لم ينلْ مُسبباتها ولو كان من المؤمنين "⁴.

فمن عواملِ التنميةِ في نظره، الأخذُ بأسبابِ الحياةِ من علمٍ وأخلاقٍ واقتصادٍ وقُوَّةٍ وتهذيبٍ .
كلُّ هذهِ العواملِ تُؤدِّي بالأمَّةِ مَهْمَا كانَ دينُها ومدَّهبا في الحياةِ إلى الدُّخولِ في حظيرةِ

¹- المرجع السابق، ص 129 . 130 .

²- سليمان عشراقي . ابن باديس، ج 3 . المرجع السابق . ص 75 .

³- المرجع نفسه . ص 75 .

⁴- الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس . مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . مرجع سابق . ص 82 .

التَّمَدُّنِ، وتُخْرِجُ الأُمَّةَ الَّتِي تُهْمِلُهَا مِنْ هَذِهِ الحَظِيرَةِ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً، عَلَى أَنْ يَنَالَ أَفْرَادُهَا جِزَاءَ إِيمَانِهِمْ فِي الآخِرَةِ.¹

فَكُلُّ أُمَّةٍ . حَسَبَ ابْنِ بَادِيسٍ . اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْتَحْوِذَ عَلَى أسبابِ الحَيَاةِ، وَمِفْتَاحِ التَّنْمِيَةِ، بَلَغَتْ ذُرُوءَ الحَضَارَةِ، فيقول: "...إِنَّ أسبابَ الحَيَاةِ والعِمْرَانِ والتَقَدُّمِ فِيهِمَا مَبْدُولَةٌ لِلخَلْقِ عَلَى السَّوَاءِ، وَإِنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِسَبَبٍ بَلَغَ . بِإِذْنِ اللَّهِ . إِلَى مُسَبِّبِهِ، سِوَاهُ أَكَانَ بَرًّا أَوْ فَاجِرًا، مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا"².

سادسا . تَنْمِيَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ:

بالإضافة إلى نَظَرِهِ وَرُؤْيَتِهِ لِشُمُولِيَةِ التَّنْمِيَةِ، فَإِنَّهُ يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّ مَفْهُومَ ابْنِ بَادِيسٍ لِلتَّنْمِيَةِ كَانَ مَفْهُومًا إِسْلَامِيًّا شَامِلًا لِجَمِيعِ قَضَايَا التَّنْمِيَةِ، مُدْرِكًا لِجَمِيعِ أبعادِهَا، مُسْتَنِيرًا بِتَجَارِبِ الأُمَّمِ وَبِفِلْسَافَةِ التَّارِيخِ³. ذَلِكَ أَنَّ الهَدَفَ الإِسْتِراتِيجِيَّ الَّذِي وَضَعَهُ ابْنُ بَادِيسٍ نَصَبَ عَيْنَيْهِ هُوَ خِدْمَةُ بِلَادِهِ وَدِينِهِ وَثقَافَةِ أُمَّتِهِ، أَيْ خِدْمَةُ الجِزَائِرِ والدِّفَاعِ عَنِ مُقَوِّمَاتِ سِيَادَتِهَا جِنْسًا وَدِينًا وَلُغَةً وَتَارِيحًا، هَدَفٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنَّهُ يَتَضَمَّنُ بَرنامِجًا شَامِلًا لِلحَرَكَةِ الإِصْلاحِيَةِ فِي أبعادِهَا الدِّينِيَّةِ وَالتَّرْبَوِيَّةِ وَالاِجْتِمَاعِيَّةِ.⁴

¹ - عبد اللطيف عبادة. فقه التغيير في فكر مالك بن نبي (ط2)، الجزائر: مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع. 2007م) ص245.

² - الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. المرجع السابق. ص91.

³ - عبد اللطيف عبادة. فقه التغيير في فكر مالك بن نبي. المرجع السابق. ص253.

⁴ - عبد القادر فضيل. المدرسة الباديسية عنوان مقاومة (رسالة المسجد، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، العدد: 4. ربيع الثاني 1426هـ/ جوان 2005م) ص56.

سابعا . اعتمادُه العملَ الجماعيَّ المنظمَ :

لَا يَخْفَى عَلَى رِجَالِ الإِصْلَاحِ وَالتَّغْيِيرِ مَا لِلْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ، وَالْمُؤَسَّسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْجَامِعِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ مِنْ دَوْرٍ عَظِيمٍ وَجَلِيلٍ، مَعَ الاسْتِئْثَاسِ بِالْمَعَارِفِ الْعَصْرِيَّةِ.

وَقَدْ اسْتَطَاعَ ابْنُ بَادِيسٍ مِنْ خِلَالِ مُعَايِشَتِهِ لِلوَاقِعِ المَحَلِّيِّ وَالْعَالَمِيِّ، أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ الجُهِودَ الفَرْدِيَّةَ الَّتِي تَتَوَلَّى عَمَلِيَّةَ التَّغْيِيرِ، لَنْ تُثْمَرَ شَيْئًا ذَا بَالٍ، فِي عَالَمٍ شَهِدَ تَطَوُّرًا مُذْهَبًا عَلَى جَمِيعِ الأَصْعَدَةِ، وَأَنَّ العَمَلَ المُؤَسَّسَاتِيَّ أَصْبَحَ هُوَ الطَّرِيقَةَ المِثْلِيَّةَ الَّتِي تُمَكِّنُ العَامِلِينَ مِنْ تَحْقِيقِ الإِنْجَازَاتِ الكُبْرَى.¹ وَيُؤَكِّدُ ابْنُ بَادِيسٍ أَنَّ العَمَلَ الْجَمَاعِيَّ المُنظَّمُ هُوَ عِمَادُ نَهْضَةِ المُسْلِمِينَ، وَيُقرِّرُ ذَلِكَ فيقولُ: "إِنَّمَا يَنْهَضُ المُسْلِمُونَ بِمُقْتَضِيَّاتِ إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِذَا كَانَتْ لَهُمْ قُوَّةٌ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لَهُمْ قُوَّةٌ إِذَا كَانَتْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ مُنظَّمَةٌ تُفَكِّرُ وَتُدَبِّرُ وَتَتَشَاوَرُ وَتَتَأَزَّرُ، وَتَنْهَضُ لِجَلْبِ المَصْلِحَةِ وَالدَّفْعِ المَضَرَّةِ مُتَسَانِدَةً فِي العَمَلِ عَنِ فِكْرٍ وَعَزِيمَةٍ"².

فَلَقَدْ كَانَ الإِمَامُ ابْنُ بَادِيسٍ مُوَلَّعًا وَشَعُوفًا بِالعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ، ذَائِمَ التَّطَلُّعِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ يُفَوِّتُ أَيَّةَ فُرْصَةٍ تُنَاحُ لِتَطْوِيرِ عَمَلٍ فَرْدِيٍّ وَالارتقاءِ بِهِ إِلَى عَمَلٍ جَمَاعِيٍّ؛ إِلَّا اغْتَنَمَهَا وَسَعَى حَثِيثًا إِلَى تَجْسِيدِهَا مِيدَانِيًّا.³

¹- محمد زرمان. من معالم التغيير الحضاري عند ابن باديس (مجلة:الموافقات،العدد:6،السنة :6.الجزائر:المعهد الوطني العالي لأصول الدين.1418هـ/1997م. 1998م)ص469.

²-الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس.محالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.المرجع السابق.ص221.

³-علي محمد محمد الصلاحي .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي،وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس.مرجع سابق،ص401.

خلاصة المبحث الثاني

كان المبحث الثاني والأخير حول المنهج المقاصديّ عند الإمام ابن باديس . فهما وتنزيلاً . ، وقد تضمّن ثلاثة مطالب، احتوى الأوّل منها بياناً لاعتبار المصلحة والمفسدة عند الإمام ابن باديس . وأمّا الثاني فكان محتواه يدور حول محور اعتبار الإمام في اجتهاده ودعوته لكلّ من فقه المآلات وفقه الأولويات . وأمّا المطلب الثالث والأخير، فقد كان مضمونه النّظر الكليّ عند ابن باديس كمسلكٍ مقاصديّ في مُعالجته لمشكلات مجتمعه وأمتّه، مع بيان المرتكزات والآليات التي اعتمدها في ذلك .

الخاتمة

أحتمُّ بما بدأتُ به، وبما يليقُ بجلاله تعالى من حمدٍ وشكرٍ، فالحمدُ لله تعالى أولاً وأخيراً، الذي وقَّفتُني إلى إتمامِ هذا البَحْثِ، والذي أعتبرُهُ جهَدَ المقلِّ في حقِّ هذا الرَّجُلِ، والذي حاولتُ من خلاله، رغم ضيقِ الوقتِ المعطى، وعائقِ عددِ الصَّفَحَاتِ المطلوبةِ مِنَّا، أنْ أصِلَ إلى هديِّ الذي قصدتُ الوصولَ إليه، ويُمكنُنِي أنْ أُوجِزَ النَّتَاجَ والتَّوصِيَاتِ الَّتِي توصلتُ إليها فيما يلي:

أولاً: النَّتَاجُ:

- 1- أهميَّةُ فقهِ المقاصدِ، ومنزلتُهُ العظيمةُ، كأهمِّ مباحثِ علمِ أصولِ الفقهِ؛ ذلك أن هذا الفقهِ يُعتبر بمثابة الميزانِ للأفكارِ، والمعياريِّ الذي يُميِّزُ به بين المصالحِ والمفاسدِ، والمنافعِ والمضارِّ.
- 2- التَّأكيدُ . رغم أنَّ الأمرَ لا يحتاجُ إلى ذلك . على عظمةِ هذا الإمامِ، إمامِ التَّربيةِ والإصلاحِ والفكرِ والعلمِ...
- 3- رفعُ همِّ الدُّعاةِ والعاملينَ في حقلِ الدَّعوةِ ومجالِ التَّعليمِ، وذلك بالنَّظرِ إلى مُنجزاتِ الإمامِ ابنِ باديس، رغمَ صعوبةِ الظروفِ، وضعفِ الإمكانياتِ، وقصرِ مُدَّةِ عُمرِهِ.
- 4- إنَّ الأعمارَ لا تُقاسُ بِكَمِّ الأرقامِ والسَّنِينِ، بقدرِ ما تُقاسُ بِكَيْفِ الأعمالِ والتَّأثيرِ الإيجابيِّ، فربَّ عُمرٍ قصرتُ أمادُهُ وكثرتُ أمدادُهُ، وربَّ عُمرٍ طالَتْ أمادُهُ وقلَّتْ أمدادُهُ.
- 5- التَّأكُّدُ من اهتمامِ ابنِ باديس بفقهِ المقاصدِ، رغمَ عدمِ تأليفِهِ في هذا الميدانِ، ولكنَّ آثارَهُ شاهدةٌ على ذلك.
- 6- اهتمامُ ابنِ باديس بهذا الفقهِ كان اهتماماً تطبيقيّاً وتنزيلياً، أكثرَ ممَّا كانَ فقهِماً وتنظييراً.
- 7- يتجلَّى هذا الاهتمامُ العمليُّ والتطبيقيُّ في اجتهادِ الإمامِ المقاصديِّ، من خلالِ اعتباره لفقهِ المآلاتِ وفقهِ الأولوياتِ، وكذا في مجالِ الفتوى عندِ مراعاتِهِ للحالِ والظُّروفِ.
- 8- بُعدُ نظرِ ابنِ باديس في مسألتهِ المقاصديِّ، من خلالِ نظره الشَّامِلِ والكلِّيِّ في مُعالجةِ مُشكلاتِ واقعه وأُمَّتِهِ، باستغلالِ كُلِّ ما أمكَنُهُ من وسائلٍ وأسبابٍ مُتاحةٍ بين يديه.

ثانيا: التّوصيات:

- 1- التّأكيد على ضرورة إثراء هذا الجانب من حياة الإمام ابن باديس، أي الجانب المقاصدي في حياته، لأنّ ما كُتِبَ عنه من هذه النّاحية يُعدُّ نزرًا قليلًا بالمقارنة مع غيره من التّواحي.
 - 2- الاهتمام أكثر بفقهِ المقاصدِ فقهاً وفهماً، ولكنّ بشكلٍ أكبرٍ تطبيقاً وتنزيلاً، إذ أراه أهمّ ضابطٍ لأفكارنا، وميزانٍ لتصرّفاتنا، وهذا - وللأسفِ - ما نفقده في واقعنا.
 - 3- وجوبُ اهتمام الدّعاة والمتصدّين للفتوى - خاصّةً - بفقهِ المقاصدِ، لما له من أهميّة كبيرة، مع ضرورة الاعتبار لفقهي الأولويات والمآلات، ومراعاة الأحوال والظروف والأعراف.
 - 4- إدراج المبادئ العامّة لفقهِ المقاصدِ ضمن محتويات مناهج التّربية، وخاصّةً في طوّري المتوسّط والثّانويّ، حتّى تشبّ النّاشئة على الفهم الصّحيح، والفكر السّليم، والتصرّف السّديد.
 - 5- وجوب استغلال الممكّنات من الوسائل - إلى أبعده حدّ - قصد الوصول إلى الأهداف - وإلى أقصى مدى - ، أخذًا بالأسباب التي كثيرًا ما تُهمّلها أو لا نستغلّها، بدعوى أنّها غير مُجدية.
 - 6- الحرص على تنزيل الأحكام وفق سنّة التدريج، وسبيل المرونة، ومسلك الحكمة التي تقتضي فعل ما ينبغي، بالقدر الذي ينبغي، في الزّمن الذي ينبغي، ومع من ينبغي.
 - 7- وأخيرًا وهو الأوّل: التّأكيد على وجوب استحضار الإخلاص لله تعالى في كلّ ما نقوم به من أعمالٍ، حتّى ننال رضاه، ونكسب عونه ومدده - ونحن الضّعفاء - ، وحينها سنرى العجب، لأنّهُ تعالى إذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتّش.
- وختامًا: أسأله تعالى السّدادَ والقبولَ لما بذلته من جهدٍ - وهو القليل - ، وأن يجعله في ميزانِ الحسناتِ، ويُلحِقنا بالصّالحين من عباده في جنانه.
- وصلّى الله على خيرٍ من تلقى على الأرضِ رسالة السّماءِ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.
- والحمد لله ربّ العالمين أوّلاً وآخراً

الفهارس العامة

- 1- فهرس الآيات القرآنية.
- 2- فهرس الأحاديث النبوية.
- 3- فهرس الأعلام المترجم لهم.
- 4- فهرس المراجع والمصادر.
- 5- فهرس الموضوعات.

1- فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	السورة ورقمها	بداية الآية أو الآيات
		سورة: المائدة [5]	
35	16 . 15		﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا...مستقيم﴾.
		سورة: يوسف [12]	
32	108		﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة...﴾.
		سورة: النحل [16]	
35 . 33	125		﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة ...﴾
		سورة: الإسراء [17]	
25	18		﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها...﴾
52	26		﴿وإات ذا القربى حقه والمسكين...﴾
33	33 . 31		﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...منصورا﴾
33	34		﴿ولا تقربوا ما اليتيم إلا بالتي هي أحسن...﴾
38	36		﴿ولا تقف ما ليس لك به علم...﴾
		سورة: النور [24]	
48	62		﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله...﴾
		سورة: الفرقان [25]	
26	30		﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا...﴾

2- فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث
26	﴿الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْتُرْجَةِ...﴾.

3- فهرس الأعلام المترجم لهم

الاسم	الصفحة
أحمد الريسوني.	10
بخت المطيعي (ت:1935م).	17
تركي رابح عمارة.	06
عبد المجيد النجار.	13
علال الفاسي (ت:1974م).	10
طاهر الجزائري.	16
محمد البشير الإبراهيمي (ت:1965م).	24
محمد الطاهر بن عاشور (ت:1973م).	9
محمد عمارة.	36
مسعود فلوسي.	21

4- فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (برواية: حفص عن عاصم).
- 1- ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ). فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. لا. ط؛ بيروت: درا المعرفة للطباعة والنشر، د.ت.
 - 2- أحمد الريسوني. نظرية المقاصد عند الشاطبي. ط4؛ المملكة العربية السعودية: نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب. 1416هـ/1995م.
 - 3- أحمد الريسوني. محاضرات في مقاصد الشريعة. ط3؛ دار الكلمة للنشر والتوزيع. 1435هـ/2014م.
 - 4- أحمد حماني. صراع بين السنة والبدعة، لا. ط، لا. م، دار البعث، د.ت.
 - 5- الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. ط1؛ الجزائر: دار البعث للطباعة والنشر. 1402هـ/1982م.
 - 6- الزبير بن رحال. الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية. لا. ط؛ الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
 - 7- الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (ت: 790هـ). الموافقات تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، ط1؛ المملكة العربية السعودية: دار ابن عفان للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م.
 - 8- الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (ت: 790هـ). كتاب الاعتصام، لا. ط؛ لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م.
 - 9- الطيب برغوث. منهج النبّي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها

خلال الفترة المكية. ط1؛ الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1416هـ/1996م.

10- بو بكر صديقي. البعد المقاصدي في فتاوى أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. دراسة من خلال جريدة البصائر: 1935م. 1956م. مذكرة ماجستير. فقه وأصول، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر. باتنة، 1431هـ - 1432هـ / 2010م. 2011م.

11- تركي رابح. الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر. ط5؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار 1422هـ/2001م.

12- جريدة البصائر. ط1؛ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1426هـ/2005م

13- جريدة الشهاب. ط1؛ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1421هـ/2001م

14- حسن عبد الرحمان سلوادي. عبد الحميد بن باديس مفسرا، لا. ط؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م.

15- خليفة بابكر حسن. فلسفة مقاصد التشريع في الفقه الإسلامي، ط1؛ مصر: مكتبة وهبة. 1421هـ/2000م.

16- سليمان عشراطي. ابن باديس. لا. ط؛ الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، د.ت.

17- سميح عبد الوهاب الجندي. أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الحكم، ط1؛ سوريا: مؤسسة الرسالة ناشرون، 1429هـ/2008م.

- 18- عبد الحميد بن باديس (ت:1940م). مبادئ الأصول. تحقيق: عمار الطالبى، ط2؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988م.
- 19- عبد الرحمان بن معمر السنوسي. اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ط1؛ المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، رجب1424هـ.
- 20- عبد الرشيد زروقة. جهاد ابن باديس ضد الإستعمارالفرنسي في الجزائر: 1913م. 1940م. ط1؛ لبنان: دار الشهاب. 1420هـ/1999م.
- 21- عبد الكريم بوصفصاف. الفكر العربي الحديث والمعاصر محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا. لا.ط؛ الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- 22- عبد الكريم بوصفصاف. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية: 1931. 1945. لا.ط؛ الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع. 2009م.
- 23- عبد اللطيف عبادة. فقه التغيير في فكر مالك بن نبي. ط2؛ الجزائر: مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع. 2007م.
- 24- عبد المجيد النجار. مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ط2؛ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2008م.
- 25- عبد المجيد النجار. في فقه التدين فهما وتنزيلا، ط1؛ قطر: مطابع مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، جمادى الأولى1410هـ.
- 26- علال الفاسي (ت:1974م). مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ط5؛ لام، دار الغرب الإسلامي، 1993م.

- 27- علي محمد محمد الصلابي. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم: عبد الحميد بن باديس، ط1؛ لبنان: دار ابن كثير، 1437هـ/2016م.
- 28- عمار الطالبي. ابن باديس حياته وآثاره، لا. ط؛ الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م.
- 29- عمار بن مزوز. عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ط2؛ الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2015م.
- 30- عمر عبيد حسنة. الاجتهاد سبيل الوراثة الحضارية، ط1؛ لبنان: المكتب الإسلامي، 1419هـ/1998م.
- 31- مجلة الدراسات الإسلامية. جامعة عمار ثليجي بالأغواط، قسم العلوم الإسلامية، العدد: 4، سبتمبر: 2014م.
- 32- مجلة: (الموافقات) للعلوم الإسلامية. الجزائر: المعهد الوطني العالي لأصول الدين، السنة: 6، العدد: 6، 1418هـ/1997م. 1998م.
- 33- مجلة: (رسالة المسجد)، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، السنة: الرابعة، العدد: 2، ذو القعدة: 1427هـ/نوفمبر: 2006م.
- 34- محمد البشير الإبراهيمي (ت: 1965م). عيون البصائر، لا. ط؛ الجزائر: شركة دار الأمة. 2007م.
- 35- محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1973م). مقاصد الشريعة الإسلامية، ط5؛ تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ومصر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. 1433هـ/2012م.
- 36- محمد الغزالي (ت: 1996م). خلق المسلم، ط15؛ الجزائر: مكتبة

- رحاب. 1408هـ/1987م.
- 37- محمد بن أحمد سيد أحمد زروق. سد الذرائع في المذهب المالكي، ط1؛ بيروت: دار ابن حزم، 1433هـ/2012م.
- 38- محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، ط1؛ المملكة العربية السعودية: دار الهجرة للنشر والتوزيع. 1418هـ/1998م.
- 39- محمد عمارة. مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحدائث الغربية، ط1؛ مصر: مكتبة الشروق الدولية، 1423هـ/2003م.
- 40- محمد فتحي عثمان. عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة، ط1؛ الكويت: دارالقلم للنشر والتوزيع، 1407هـ/1987م
- 41- مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده، ط1؛ الجزائر: درا قرطبة للنشر والتوزيع، 1426هـ/2006م.
- 42- مصطفى زيد. المصلحة في التشريع الإسلامي، تعليق وعناية: محمد يسري، لا.ط؛ مصر: دار اليسر للطباعة والنشر، د.ت.
- 43- من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية. آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ط1؛ الجزائر: دار البعث للطباعة والنشر، 1412هـ/1991م.
- 44- نبيل موفق. علاقة المقاصد الحاجية بالأدلة الاجتهادية، ط1؛ الجزائر: مطبعة مزوار، 2016م.
- 45- نور الدين بن مختار الخادمي. الاجتهاد المقاصدي حجيته ، ضوابطه،

مجالاته. ط1؛ قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، كتاب الأمة، العدد:

66. السنة: 18، رجب 1419هـ/أكتوبر. نوفمبر 1998م.

46 - يوسف القرضاوي. في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن

والسنة، ط1؛ لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ /

2000م.

47- يوسف حامد العالم. المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ط2؛ المملكة

العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، 1415هـ/1994م.

5- فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	الإهداء.
	شكر وتقدير.
	ملخص البحث.
	قائمة الرموز والإشارات.
أ	مقدمة.
1	المبحث التمهيدي: الإمام ابن باديس ومقاصد الشريعة.
2	المطلب الأول: التعريف بالإمام ابن باديس.
9	المطلب الثاني: مقاصد الشريعة (المفهوم، التطور، والأهمية).
15	المطلب الثالث: أثر بعض شيوخ ابن باديس في تكوينه المقاصدي
19	خلاصة المبحث الثاني.
20	المبحث الأول: اهتمام ابن باديس بفقہ المقاصد.
21	المطلب الأول: فقه المقاصد في مجال التعليم والتدريس عند ابن باديس.
30	المطلب الثاني: فقه المقاصد في مجال الدعوة عند ابن باديس.
37	المطلب الثالث: فقه المقاصد في مجال الفتوى ومراعاة الحال وظروف الزمان والمكان عند ابن باديس
44	خلاصة المبحث الأول.
45	المبحث الثاني: المنهج المقاصدي عند الإمام ابن باديس (فهما وتنزيلا).
46	المطلب الأول: اعتبار المصلحة والمفسدة عند الإمام ابن باديس

54	المطلب الثاني: اعتبار فقه المآلات وفقه الأولويات عند الإمام ابن باديس.
63	المطلب الثالث: النظر الكلي في معالجة المشكلات عند الإمام ابن باديس.
69	خلاصة المبحث الثاني.
70	الخاتمة.
72	الفهارس العامة.
73	فهرس الآيات القرآنية.
74	فهرس الأحاديث النبوية.
75	فهرس العلام المترجم لهم.
76	فهرس المصادر والمراجع.
82	فهرس الموضوعات.